

مكسيم غوركي

المتشرّدون

ترجمة
عبد المعين الملوحي



المتشردون

عنوان الكتاب: المتشردون
اسم المؤلف: مكسيم غوركي
الموضوع: قصص
ترجمة: عبد المعين الملوحي
عدد الصفحات: 152 ص
القياس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN:

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دَارُ نَيْنَوَى
لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع



Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

مكسيم غوركي

المنشردون

تعريب

عبد المعين الملوحي

مقدمة المترجم

قال اياس بن القائف:

تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا
في هذه المجتمعات التي يسودها نظام التنازع الحيواني في سبيل
البقاء، مهما كان نوع البقاء، لا نظام التضامن الإنساني في سبيل حسن
البقاء، وفي هذه المجتمعات التي يعيش فيها الإنسان «شيئاً» لا قيمة له، لا
«إنساناً» هو معيار القيم، في هذه المجتمعات التي ما تزال تسير يدفعها
القدر الأعمى، ولا يهديها العقل البصير، في هذه المجتمعات يعيش الملايين
من البؤساء، تقذف بهم الأرض في كل جانب فهم لا يطمثون، وتلقى
عليهم الحياة أثقالها فتطحنهم طحناً، في هذه المجتمعات يتحوّل هؤلاء
الملايين إلى لصوص يسرقون ويظنون أنهم بهذه السرقة قادرون على حلّ
مشكلة فقرهم وهي جزءٌ من مشكلات المجتمع، وهم لا يعلمون أنهم
يزيدونها بها تعقّداً، وإلى متشردين يسعون في طلب الرزق في كلّ مكان فلا
يجدونه في مكان، يطلبونه حفاة عراة ويظلّ يفرّ منهم، فتهترئ حياتهم في
الشوارع والأرقة فلذة بعد فلذة حتى يسلمهم طول الطواف في صحارى
العمر إلى طول الرقود في زوايا القبر، وإلى شحاذين يملؤون آذان الناس في
طلب الرحمة ولو كان في الناس رحمة لجادوا عليهم بها دون سؤال،

ويتسكعون على الأبواب يطلبون من مال الله والمال في خزائن الأغنياء،
فيضربهم الرجال وتتهرم المرأة ويشتمهم الطفل، ويستمرون في التسول
يجمعون كِسْرَ الخبز اليابس، وفضلات الطعام الوخم، ويجعلونها غذاء
لأطفالهم الذين يسرون بهم إلى جانبهم أكواماً من الأقدار وتلافاً من
الأسهال، أو يحملونهم على ظهورهم مرضى يفتك بهم السل فيقيثون رثاتهم
وهم يسعلون.

إلى هؤلاء اللصوص والمتشردين والشحاذين يتحوّل الملايين في
هذا العالم الذي كان ينبغي ألا يكون فيه لص ولا متشرد ولا شحاذ، وفي
هذا العالم عاش مكسيم غوركي ردحاً من عمره متشرداً في الطرق، ولقد
كان من الممكن أن (يبقى) كذلك، ولكنه أراد أن يشقّ لنفسه سبيلها إلى
الحياة والحرية والنور، وأراد الموت والاستبداد والظلام أن تشقّ سبيلها
إلى نفسه ونشبت معركة كبرى بينهما واستمرت هذه المعركة تسعاً
وأربعين سنة 1868 - 1917، ثمّ انتهت بانتصار الكاتب انتصاراً أبدياً،
وأذابه، وقد انتقد نفسه، وشقّ طريقه إلى المجد والخلود، وإذا به لا ينقذُ
نفسه وحدها، ولكنه ينقذُ معها مائتي مليون من المعدّبين، وإذا به وهو
المتشرد يستطيع أن يشترك في بناء مجتمع ليس فيه ولا يمكن أن يكون فيه
لص ولا متشرد ولا شحاذ.

ولقد أراد هذا الكاتب العبقري أن يعرض علينا صفحة من حياته
وحياة زملائه القدامى، فكتب كتاب «المتشردين»، والحقّ أنّه استطاع أن
يمثل لنا فيه فصلاً من تلك المأساة التي مثلها الناس جميعاً على مسرح
الأرض منذ فجر التاريخ، من تلك المأساة التي انتهت في ركن من العالم منذ

أربع وثلاثين سنة وما تزال آخذة في النهاية في أركان أخرى متلاحقة في غير فتور متزايدة في غير توقف.

وهو يعرض لنا في كتابه ثلاثة نماذج من المتشردين، في ثلاث قصص:

أما النموذج الأول فيمثله تشيلكاش، هذا الرجل القوي الذي كان جندياً ثم أصبح متشرداً، وكان ذا أهل وزوج فترك الأهل والزوج، إنه لص خطير، ولكنه مع ذلك كريم، إنه شقي بائس ولكنه مع ذلك يريد ألا يبقى غيره شقياً ولا بائساً، فهو يجود بما يسرق على فلاح ليعيش هذا الفلاح سعيداً.

وأما النموذج الثاني فيمثله غوركي نفسه، هذا الرجل الذي ذاق التشرد ولكن التشرد لم يستطع أن يحلّ ما في شخصيته من تماسك ورجولة، لقد عرف - كما قال في ذكرياته الأدبية - أن ليس في الوجود شيء يخلق الإنسان مثل مقاومة هذا الوجود، فقاومه واستطاع أن يتصر عليه وأن يفرض عليه نفسه.

كان كل شيء يدفعه إلى أن يكون مثل من حوله: لصاً أو مجرمًا أو سكيراً ولكنه أبى أن يكون مثل من حوله فاستطاع أن يكون أعظم كاتب لأعظم ثورة.

وهو في قصته «رفيقي» يحكي أميراً من أمراء الكرج أربعة أشهر، يطعمه ويرعاه ويجرسه، ويلقى في سبيله الموت مرات ويرافقه من أوديسا إلى تفليس ويعده الأمير إذا وصل إلى مقر إمارته بالحياة الرغيدة السعيدة، وسرى ما سيكون من أمره معه، ولكن مكسيم غوركي تعلّم منه درساً في

الحياة، «لقد تعلّمتُ منه أموراً كثيرة لا أستطيع أن اتعلّمها في الكتب الكبيرة، ذلك أنّ فلسفة الحياة كانت وما تزال أكثر عمقاً وأوفر سعة من فلسفة الناس».

والنموذج الثالث هو أكثر نماذج المتشردين بؤساً وشقاءً إنّهُ النموذج الذي لا يستطيع أن يستمرّ في السرقة مثل تشيلكاش لأنّه عبوز متهدّم أو طفل صغير ولا يستطيع أن يقضي على تشرده وأن يشقّ طريقه إلى العمل مثل مكسيم، لأنّه ضعيف النفس سقيم، فهو يموت في الأفاق، يجره السيل فيقضي عليه فلا يجد جبانة يأوي إليها، لأنّه سارق لا يجوز أن يرقد في مقابس المؤمنين، ومع ذلك فقد جاد عليه هؤلاء المؤمنون أخيراً بصليب من حجر.

قوة جسدية لم تُرزق قوة نفسية، فهي تستمرّ في تشردها وبطشها.
وقوة جسدية ذات نفس جبّارة تقف عن التشرد وتمشي في طريق المجد.

وضعتُ جسديّ يُضَافُ إلى ضَعْفِ نفسي يغرق في تيار الحياة ويأخذه السيل فيموت.

تلك هي نماذج ثلاثة من المتشردين تعرضها علينا روايات مكسيم غوركي الثلاث:

1- تشيلكاش

2- رفيقي

3- المجد أُرخب والحفيد لانكا

وها آنذا أنقلها إلى اللغة العربية أثراً من آثار الأدب الحي، بعد أن

مكسيم غوركي

نقلت للكاتب «ذكريات حياتي الأدبية» وقد نشرته في القاهرة، وأعد أن أنقل كل آثار الكاتب، وبعضها لا ينقصه اليوم إلا أن يطبع.

وفي اعتقادي أن الشرط الأول لرفع مستوى الأدب العربي الآن هو أن ننقل روائع الأدب العالمي نقلاً منظماً، ولا سيما الأدب الذي يُشعرُك أن عليك أن تكون إنساناً وأن تكون حراً.

وفي اليوم الذي لا أجد فيه لصاً ولا متشرداً ولا شحاذاً، في اليوم الذي لا يمكن أن يكون فيه لص ولا متشرد ولا شحاذ، في اليوم الذي تصبح فيه اللصوصية حلماً مزعجاً، ويصبح التشرد ذكرى للإنسانية المريرة، والشحاذة تاريخاً ماضياً لعيناً، في هذا اليوم يصبح الإنسان إنساناً لا حيواناً ولا عنصراً.

ولعلي سأرى هذا اليوم عما قريب

حمص 13\11\1951

عبد المعين الملوحي

تشيلكاش

-1-

تصاعد الغبار من المرفأ فعكّر صفو السماء، وانتقدت الشمس فوق
البحر اللازوردي مُشْحَةً بحجاب أبيض رقيق وتكسّرت أشعتها على
الأمواج، وبدت على صفحة الموج دروع مسرودة نسجتها ضربات
المجاذيف، ومراسي المراكب، ومراوح السفن، وقوادم الفلك وهي تروح
وتغدو وتشقّ الأخاديد في جبين الحوض الصغير.

وكبّلت صخور الشاطئ الأمواج، وسحقها الأثقال التي تحملها،
ودنّست الأقدار ذوائبها الغاضبة، فترنحت ثم تكسّرت على المراكب وعلى
الأرصفة، وكأثها وهي في حربها الضروس، يوشوش بعضها في آذان بعض.
وملأ الجواء انسجام رائع، إنه هو العمل الشامل. هو الانسجام
الذي يبدعه صرير السلاسل، وتدحرج القاطرات تحمل البضائع، وسقوط
أعمدة الحديد على الأرصفة سقوط المتحجب الشاكي، وصفير المراكب
البخارية صفيرها الحاد حيناً، الأجش حيناً، وضوضاء الحمالين، وأصوات
البخّارة وصرخات رجال المكوس.

وتعالت هذه الضوضاء، وتمددت، ثم وقفت في السماء لا تصعد ولا تتحرك، لكأنها خشيت أن يتلعها علوها في جواء السماء.

والأرض تنفث أشكالاً أخرى من الضجة لا تكاد تتغير فهنا أشكال من الرعود تهز الأرض هزاً عنيفاً وهناك أنواع من الصغير ترتج وترن في الهواء الذي يحترق بما أثقله من الغبار.

وتعالى من كل ما هنالك من حجارة ومعادن، وأخشاب ومراكب، وإنسان وحيوان، ابتهاج حار وتضرع ملتهب، إلى الوهية المال.

أما صوت الإنسان في وسط هذه الضجة الكبرى، فكان ضعيفاً لا تكاد تميزه الأذن، وكان مضحكاً كهؤلاء الناس الذين صنعوا هذه الضجة الكبرى. كانوا يلبسون أثواباً خلقة وسخة بالية، ويحنون ظهورهم تحت هذه الأثقال الفادحة، ويدبّون ديباً في هذا الغبار المتراكم المتراكب، وكأنهم أقزام متضائلة صغيرة إلى جانب تلك الآلات الحديدية الجبارة وإلى جانب هذه القطارات الهائلة وهذه الأدوات التي كانوا، مع ذلك هم الذين اخترعوها وصنعوها.

إنهم وهم عبيد مخلوقاتهم فقدوا بها كل ما لهم من شخصية. وزارت السفن الثقيلة الراسية في المرفأ وصفرت، ولكأن في كل زفرة من زفراتها العميقة سخرية مريرة من سخرياتها هؤلاء الناس الذين يجرون أرجلهم جراً على الجسر، ويكومون في زواياها ما أنتجت جهودهم، جهود الخدم والعبيد، من رزق وخير.

ومشى الحمالون في صف طويل، يبعثون على الضحك ويدفعون إلى البكاء في آن واحد، وحملوا فوق ظهورهم أكياس الحنطة الثقيلة، وذهبوا بها

يودعونها أمعاء الحديد في المراكب.. ولولا هذا العمل لم يستطيعوا أن يصلوا
إلى هذه الكسر من الخبز الذي ليس لهم عنه غنى، يطمثون به معداتهم التي
يصرخ فيها الجوع ويتضور فيها السغب.

يا لها من سخرية فاجعة قاسية هذه السخرية التي تسخر بها الأشياء
من الناس: هنا ناس أنصاف عراة يتصيبون عرقاً ويتهاكون تعباً وحرّاً
تصعقهم الضوضاء وتُصمُّ آذانهم الضجّة.. وهناك الآلات لامعة ساطعة،
قوّة لا تشعر بتعب ولا تحسّ بالألم. إنّ الذي يهب الحياة لهذه الآلات ليس
هو هذا البخار، إنّ ما في عضلات الإنسان من قوّة وإن ما في عظامه من
مخ، إنّها هما اللذان يقدمان لها القوت، ويهيان لها الغذاء.

الضوضاء صاخبة، والغبار كثيف يغيظ الأنوف والجفون ويرهق
الناس إرهاقاً، ولقد يُحَيَّلُ إليك أنّ هذا الجو الحار الساخن المختلج يتمخّض
عن حادثة رهيبة مفاجئة، عن انفجار عظيم سيجعل هذا الهواء أكثر صلاحاً
للتنفس وأكثر نقاء وصفاء، عن انفجار سيحرر الأرض المثقلة بكلّ هذه
الضجّة المزعجة والضوضاء المثيرة، وسيبدّد هذا السم القتال وعندئذ تظهر
الأرض والبحر والسماء هادئة ساكنة.. يا للأسف. إنّ هذا أمل كلّ عبث.
أمل تجبّطت فيه الإنسانية منذ الأزل في حلمها الأزلي العقيم بالخلاص.

وقُرِعَ الجرس اثنتي عشرة قرعة رنانة رتيبة، وبينما القرعة الأخيرة
تلفظ أنفاسها خفت نصف انسجام العمل، ومضت دقيقة أخرى فلم تبق
منه غير تمّمة غامضة، وأصبح صوت الناس أكثر وضوحاً وصوت البحر
أشدّ ظهوراً.

لقد دقت ساعة الغذاء

أنهى الحمالون أعمالهم، ومَضَوْا زرافات يشترتون ما يسد رمقهم من
بائعي الرصيف، ومَضَوْا يبحثون عن زوايا ذات ظل يجلسون على أرضها
فيأكلون ويشربون.

وبرز فجأة بينهم ذلك الذئب العجوز الوحشي الذي يسميه الناس
«غريشكا تشيلكاش» طالما خاصم تشيلكاش الشرطة، وخاصمهم في
مسائل تافهة واعتبره كل من في المرفأ سكيراً عربيداً مدمناً في ثياب لص
جسور ماهر.

ومشى تشيلكاش عاري الرأس، حافي القدمين، يرتدي سروالاً بالياً
من المخمل، وقميصاً من قماش ممزق إرباً إرباً، ترى من خلال ثقبه جلد
عنقه الأسمر يغطي عظاماً ما تنفك تختلج وتتحرك، ويشهد شعره الأسود
الأشعث الذي وخطته شعرات بيض قلائل، ووجهه العابس الذي تشبه
تقاطيعه تقاطيع طير مفترس. إنه قد استيقظ وشيكاً من نومه، ولا يزال على
وجهه عودان من القش يتعرّض أحدهما شاربيه اعتراضاً ويستلقي الآخر
على لحيته استلقاءً، وقد تلتفت زهرة من أزهار الزيزفون ما تزال غضة على
أذنه.

مشى تشيلكاش طويلاً جدّ طويل، نحيفاً جدّ نحيف، منحياً بعض

انحناء يحك أنفه، ويبحث عن رجل بين الحمّالين، ويهتزّ شارباه الكثيفان
الأسودان، كأتفها شاربيا قط، ويشبك وراء ظهره كفين أصابعهما ثخينة ذات
عقد خشنة.

كان هناك مئات من الحفاة العراة أمثاله ومع ذلك فأنت لا تستطيع
إلا أن تميزه من بينهم، فنعوله الرهباني، ومرونته في مشيته، الساكنة الهادئة
في ظاهرها، القلة العصبيّة في حقيقتها، المشابهة لطيران عقاب فوق
الصحراء، كلّ ذلك كان يدعو إلى تشبيهه بهذا الطير تشبيهاً مزعجاً.

وتقدّم إليه وهو يمرّ بجماعة من المشتريين يستلقون في ظلّ عجلات
الفحم شاب ذو وجه ساذج تخطّط وجهه شطوب حمراء، وندوب تدلّ على
شجار قريب، ثمّ مشى إلى جانب تشيلكاش وتمتم في صوت خافت:

- لا يزال المراقبون يبحثون عبثاً عن صندوقين من البضاعة.
أسمعت يا غريشكا؟ وحدّق تشيلكاش في وجه الفتى ثمّ قال له:

- وماذا يعني؟

- كيف؟ ماذا يعنيك!! إنهم يبحثون. وأنا أخبرك.

- وهل دعوني لأساعدهم في بحثهم.

وعلت ثغر تشيلكاش وهو يقول ذلك، ابتسامة ساخرة ونظر إلى
مستودعات البحريّة وأضاف: - لعنك الله. ثمّ نادى صاحبه وقد رآه يتعدّد.

- قف قليلاً ما هذا؟ من الذي قام بإصلاح وجهك هذا
الإصلاح؟ خربت سحتك تخريباً. أرايت ميشكا هنا؟

وصرخ صاحبه وهو يعود إلى مجلسه بين الحمّالين: - كلا، لم أره من
زمان بعيد.

ومضى تشيلكاش في طريقه.. يقابله الناس في كل مكان بالترحاب، ولكنه كان مشغولاً عن هذا كله اليوم، مضياً مرحه الساخر الطبيعي، خائر النفس، يرد على الناس وأسلتهم بكلمة سريعة مقتضبة.

وبرز من بين أكداش البضائع حارس يجسد النظام العسكري الحازم في ثوبه العسكري الأخضر المغطى بالغبار، واعترض طريق تشيلكاش متوعداً مهدداً، وأمسك بيسراه قبضة سيفه، وحاول أن يقبض يمينه على عنق المتشرد:

- قف مكانك. وتراجع تشيلكاش خطوة واحدة إلى وراء ونظر إلى الحارس مبتسماً، وحاول الحارس أن يتخذ مظهر الرجل المخيف، وهو ذو الوجه الحي الطيب الضاحك، ونفخ خديه، وفرك حاجبيه وقلب عينيه الناقمتين فبدأ أشد إضحاكاً في جده. وصرخ في لهجة قاسية:

- أندرتك، لا تحاول دخول هذا المكان وإلا كسرت لك أضلاعك. وأجابه تشيلكاش رصيناً غير مكترث وقد مد إليه يده:

- صباح الخير يا سيمييتش. لم أرك منذ زمن طويل.
وقال الحارس:

- أمّا أنا ففي غنى عن رؤيتك. ومع ذلك فقد مدّ يده وصافح اليد الممتدة إليه فعصر تشيلكاش أصابعها، وقال له وهو يحركها: - أخبرني: هل رأيت ميشكا؟

- ميشكا؟ ومن هو ميشكا هذا؟ أنا لا أعرفه، سر في طريقك يا أخي لو رآك المفتش لـ...

وقال تشيلكاش غير عابئ: - ميشكا، الأشقر ألا تعرفه زميلي في

«الأمم المتحدة».

- زميلك في النهب والسلب. أليس كذلك؟ حسناً إنه الآن في المستشفى لقد ترك قضيباً حديدياً يسقط على ساقه.. والآن سر في طريقك يا أخي، أرجوك وإلا فأنا مضطر إلى طردك وضربك.

اسمع، قلتَ منذ لحظة أنك لا تعرف ميشكا، ثم ها أنت ذا تعرفه.

ماذا يغضبك يا سيميتش؟

- كفى يا غريشكا، كفى ثرثرة، اخرج من هنا!

وجعل يغضب، وحاول أن يتقذ أصابعه من بين يد تشيلكاش الصلدة، أما هذا فقد كان يضحك منه وينظر إليه من خلال حاجبيه الكثيفتين ويستمرّ في عصر يده ويتابع حديثه: ولم العجلة؟ ثق آتني سأسير حين أنتهي من حديثي. أخبرني كيف صحة الأولاد وكيف حال امرأتك؟ ثم كسّر عن أسنانه فتحطّمت فوق شفّته بسمة ساخرة وغمز بعينه وقال: فكّرت كثيراً في زيارتك. فلم يسمح لي وقتي. ذلك آتي دائماً سكران.

حسناً... حسناً... دعني... كفى مزاحاً يا شيطان... دعني يا أخي... بل أنا سأذهب وأدعك... ولكن أخبرني صادقاً: هل عوّلت على نهب المنازل وسرقة الأسواق؟

- ولم أسرق المنازل؟ وهنا ما يكفيننا كلينا. وبالمناسبة... أظنّ أنك قد سرقت صندوقين جديدين! فحذار حذار يا صديقي أن تقع فتعلق.

وتنادى تشيلكاش في جراته ووقاحته فزاد غيظ الحارس واختلجت أعضاؤه، وأصبح لا يستطيع نطق كلمة واحدة، فقنّع بالبصاق على الأرض، وعند ذلك أفلت تشيلكاش يده، ومضى بخطاه المرنة الهادئة إلى الباب، وسار وراءه الحارس يشتمه ويتوعده.

وعاد إلى المتشرد مرحة المفقود، وعاد يغني ويمزح ويُصَفِّر في غير
اكتراث، ويداه في جيبي سرواله، كأنه متفرِّج يتمشَّى هادئاً مطمئناً، ومشى
يبادل الناس ويبادلونه من كلِّ جانب كلمات ساخرات ضاحكات.
وصرخ أحد الحمالين الذين التهموا طعامهم ثمَّ تمدّدوا على الأرض.
- ما أحسن حظ غريشكا... إنّ الشرطة كلّها تسهر عليه وتهتم به.
وأجاب تشيلكاش:

- ذلك لأنّي حافي القدمين، ويخاف سيمييتش أن يؤذيها الحفاء،
وبلغ الباب ففتشه حارسان ثمَّ دفعاه إلى خارج المرفأ في غير عنف.
وصرخ سيمييتش، وهو واقف في ساحة المرفأ: أوقفاه.. أوقفاه..
ومضى تشيلكاش فجلس فوق عمود مغروس في الأرض تُربطُ به
المراكب ومن ورائه خمّارة، وخرج من المرفأ صف طويل من العجلات تحمل
البضائع، وتصرّ صريراً يُصمُّ الأذان، ودخل إلى المرفأ، من الناحية الأخرى،
صف طويل من العجلات فارغة سريعة يقفز أصحابها فوقها قفزاً.
ودوى الرعد من خلال غيمة كثيفة من الغبار، حتى خيّل إليه أن
الأرض تضطرب وتهتز، وشعر تشيلكاش وقد أثار شجونه حواراه مع
سيمييتش أنّه سعيد، سعيد لأنّه يحيا في هذا الجو الصاخب الذي أحبه وألفه،
وفكّر طويلاً في أحداث زمن قريب، في ربح طيب ليرتطلب منه حيلة ولا
قوة، ولو تطلبها ليعوزاه، فهو مفعم بالقوة والحيلة، بهذين العنصرين اللذين
هما أساس النجاح، وغمز بعينه وهو يحلم حلماً سابقاً بالحفلة التي سيقيمها
غداً بعد أن تنتهي مهمته، وتتفخ جيوبه بأكداس مكدّسة من الليرات.

وفكّر في رفيقه ميشكا لقد كان محتاجاً إلى معونته الغالية في حملة هذه

الليلة، فكسر له ذلك الحادث المشؤوم ساقه، وخنق تشيلكاش لعنة كانت على رأس لسانه حين ظنَّ أنَّ غياب ميشكا قد يُعوِّق نجاح مشروعه. ثمَّ نظر غريشكا إلى السماء باحثاً متصفِّحاً وتمتم: وكيف يكون الليل؟

وجلس على بعد خطوات من تشيلكاش فلاح يلبس قميصاً وسروالاً أزرقين، وفي رجله قبقاب، وعلى رأسه قبعة صفراء، وحواليه كيس صغير، ومنجل يمدُّ رأسه من هذا الكيس وتحيط به سنابل الذرة، وتلتفُّ حوله خيطان تغطي جميع جوانبه. كان يسند ظهره إلى عمود فوق الرصيف ويمدُّ رجله إلى قارعة الطريق، وكان قويَّ البنية، عريض ما بين كتفيه، أشقر الشعر، لَوَّحت الريح وجهه، وأحرقَت الشمس جلده، وكان بين الفينة والفينة يخلّص النظر إلى تشيلكاش يتفحصه بعينه الكبيرتين المليئتين بثقةٍ ساذجة.

ورآه تشيلكاش فجعل يمدُّ إليه نظره، ثمَّ مدَّ له لسانه فكشفت أسنانه عن ابتسامة منكرة وصُعِقَ الفلاح الشاب فأغمض عينه ثمَّ انفجر في قهقهةٍ صاخبةٍ وهو يصرخ: - أوه ما أخفَّه.

وزحف الفلاح زحفاً إلى تشيلكاش، ولم يكلف نفسه عناء الوقوف والمسير، وجَرَّ وراءه كيسه، وقرع منجله أحجار الرصيف وأمسك بسروال المتشرّد بهزه ثمَّ قال له:

- إيه يا أخي، أظنَّ أنك ستحيي حفلة ساهرة عامرة.

وقال له تشيلكاش في لطف وإيناس: - هذا صحيح أيها الشاب الظريف. لقد أَرْضاه عفواً هذا الشاب القوي الذي تنبَّئ عيناها الساذجتان عن نفس طفل بريء ثمَّ سأله: - آنت قادم من حصاد الذرة؟

- نعم. لقد حصدت فداناً كاملاً بكوبك واحد، الأحوال واقفة

والناس قد زادوا، وجاءنا جماعات متشردة تموت جوعاً فهبطت أجور
الحصادين، كنا نحصد الفدان بستين كويكاً في الكويت، وسمعت أن لاجرة
الحصادين فيها مضى من الزمان كانت أربعة روبلات وأحياناً بلغت خمسة.
وقال تشيلكاش:

- فيما مضى من الزمان، فيما مضى من الزمان، كان الناس يدفعون
ثلاثة روبلات عدّاً ونقدّاً لينالوا شرف النظر إلى رجل روسي أصيل. ومنذ
عشر سنوات تقريباً اتخذت من هذا العمل تجارة رابحة: كنت أدخل القرية
وأنا أنادي بملء صوتي:

يا ناس، أنا روسي.. أنا روسي، ويهرع الناس إليّ من كل جانب هذا
يفحصني وذاك يجتني، وهذا يتأملني معجباً مزهواً.. وكلّهم يدشّون في جيبي
ثلاثة روبلات وكلّهم يغمروني بالطعام غمراً ويصبّون عليّ الشراب صبّاً،
يرجونني ويلحفون في رجائهم لأشرفهم بالبقاء في بلدهم ما طاب لي البقاء..
وأصغى الفتى لتشيلكاش، وقد فغر فاه، وارتسمت على وجهه
العريض ملامح الدهشة والإعجاب.

ثم عرف أنّ هذا الرجل الذي تبرز ركبتاه من ثقوب سراويله يقصّ
عليه خرافات مضحكة، فأغلق فاه ثم انفجر في قهقهة عريضة واسعة، وأما
تشيلكاش فقد كان يصطنع الجدّ الرصين المتزمّت ويواري سخريته:
وقال الفتى الفلاح:

- ما أغرب أمرك: إن من يسمعك يقسم أنك صادق، وكذلك
فعلت أنا ولكنتي أوكد لك غير مازح ولا هازل أنّ الناس فيما مضى من
الزمان كانوا هناك..

- وأنا أوكد لك غير مازح ولا هازل أن الناس فيما مضى من الزمان كانوا هناك..

وقال الفلاح يائساً: لعنك الله... ولكن قل لي: هل أنت حذاء؟ هل أنت خيَاط؟ وسأله تشيلكاش: أنا؟ ثم فكّر قليلاً وقال: أنا صياد.

- أنت صياد؟ وماذا تصيد؟ أتصيد السمك؟

- ولماذا أصيد السمك؟ إنَّ الناس في كل هذه البلاد لا يبحثون إلا عن صيد السمك. أما أنا فأقضي أكثر أوقاتي في صنع شباك خاصة أجبرُّ بها الغرقى والألواح الضائعة في البحر وأنقذ المراكب الغرقى، وعلى العموم أجبرُّ كل شيء ممكن..

- اخترع ما طاب لك أن تخترع واخدع ما طاب لك أن تخدع ولكني، على يقين أنك من هؤلاء الصيادين الذين يتغنّون بما يفعلون:

نحن لا نلقي شباكاً فوق أمواج البحار

نحن نلقيها على مـستودع وسط القفار

ونظر تشيلكاش ساخراً إلى هذه الرعونة في هذا الولد الطيّب ثم سأله:

- وهل عرفت هؤلاء الناس؟

- لم أرهم بعيني، ولكني سمعت عنهم أحاديث بأذني.

- وهل يعجبونك؟

- ولماذا لا يعجبونني. إنهم يعيشون أحراراً لا يخافون أحداً.

- ماذا تقول؟ الحرية.. الحرية.. وهل هي عزيزة عليك؟

- وكيف لا أحب الحرية؟.. أنت سيّد أمرك.. تذهب حيث شاء لك

الهوى، تفعل ما بدالك أن تفعل! هذا هو المنام اللذيذ، والحلم العظيم،

ولكن على شرط واحد هو أن تصون أخلاقك وتحفظ نفسك، فتستطيع عندئذ أن تدرك اللذة وتغرق في المتعة، وأنت ترخي الله ولا تسخطه.

ويصق تشيليكاش على الأرض في إزدراء واحتقار وأدار ظهره إلى الفلاح وكفَّ عن حوارهِ.

أما الفتى فقد استمر في حديثه مأخوذاً بنوية من الحماسة:

- لقد ترك لي والدي بعد موته، مالاً قليلاً وأما عجوزاً، وقطعة أرض شحيحة، وماذا أصنع؟ يجب أن أعيش، وكيف أعيش؟ هذا أمر عجيب، عجيب حقاً. لو صاهرت عائلة غنية لأحسنت صنعاً، ولكن الأب لا يرضى بإعطاء بائعة لابته، إنه أعمى لا يرى شيئاً يقنعه بتقسيم ثروته. وعليّ إذن أن أرهق نفسي في العمل سنين طويلة لأزيد في ثروته... أفهمت؟ لو كنت أملك مائة وخمسين روبلاً لكنت أكثر قوة وأشدُّ بأساً، لو كنت أملكها لذهبت إلى هذا العجوز وقلت له «أين بائعة مارفا؟ هل توافق؟» فيقول لي:

- «كلا».

- «حسناً. الحمد لله أن ليس في القرية كلها فتاة أخرى صالحة للزواج» وهكذا أبقى حراً سيداً - آه - ثم تنهد الفتى الفلاح - أما الآن فليس أمامي إلا أن أصاهر عائلة. قلت في نفسي، «سأذهب إلى الكوبان وأجمع مائتي روبل على الأقل، وعند ذلك أنقذ نفسي وأصبح شيئاً ما» ولكن كل هذا حلم باطل. وعليّ الآن أن أوطن نفسي على أن اتزوج زوجاً فقيراً، وأن أكون سائمة كالعبيد لأنني لا أملك ما يكفيني لأعيش بمواردي الخاصة وأسفاه.

يظهر أن مشروع الزواج بفتاة غنية تبقى في بيت أهلها مشروع ملاً الفتى الفلاح رعباً وأسى، وأسدل على وجهه نقاباً من الحزن والقلق،

فجعل يضطرب في مكانه على الأرض ويختلج فاسترعى انتباه تشيلكاش مرة أخرى، وهو الذي نسي الفلاح وغرق في بحر أفكاره الشخصية، ولكنه لم يشعر بالرغبة في العودة إلى حديث الفلاح ومع ذلك فقد سأله:

- إذن فأين أين أنت ذاهب؟

- إلى أين أنا ذاهب؟ إلى بيتي طبعاً؟

- ولماذا طبعاً؟ أليس تحب أن تسافر إلى تركيا مثلاً.

وصرخ الفلاح في صوت حاول أن يمطّه:

- إلى تركيا؟! ما هذه الحكاية؟ أليذهب المسيحيون إلى تركيا؟

وتتم تشيلكاش يالك من أبله وأدار له ظهره، وصمّم ألا يعود إلى حوار هذا الفلاح الياّس الذي أثار في نفسه شعوراً لم يستطع تحديد نوعه. وأحس أن اضطراباً غريباً بطيئاً غير واضح يخنقه خنقاً وصل إلى أدق ما في جسمه من أعصاب، إنه شيء يشبه الاشمزاز وليس به، جعله غير قادر على الإدراك وحال بينه وبين التفكير في مشروعات الليل وخططه.

وأثارت الإهانة الفلاح قدمدم بين أسنانه كلمات بذيثة ونظر إلى تشيلكاش نظرة شزراء، ونفخ خديه وأعرض عنه بوجهه، وغمز بعينه غمزات مضحكات إنه لم يتوقع أن ينتهي حوار مع هذا الرجل ذي الشاربين الكبيرين بمثل هذه القطيعة وبمثل هذه الإهانة. ولم ينتبه له تشيلكاش، كان مشغولاً عنه يصفر ويضرب الأرض بقدمه الحافية الغبراء. ورأى الفلاح أنه قد آن وأوان الثأر من هذا المتشرد فالتفت إليه يناديه:

- ايه أيها الصياد. هل أنت سكران؟

وقطع الصياد نداء الفلاح بسؤال فجائي:

- اصغ إليّ أيها المهرج الصغير! أتشتغل عندي الليلة؟

أجب حالاً. وسأل الفلاح قلقاً - وماذا اشتغل؟

- سأقول ذلك لك: سنذهب إلى الصيد فتقود أنت المركب

- إذا كان ذلك كذلك فلست أجد ما يمنعني. ولست أريد إلا

العمل؟ ولكن خبّري.. أيمكن أن ينتهي عملي بغير سوء فملاحك غامضة لا توحى إلى نفسي الإطمئنان.

أحس تشيلكاش بطعنة في صدره ولكنه كتم غيظه وقال:

- لا شأن لك فيما لا تفهم. فاسكت وإلا ضربتك على أم رأسك

ضربة تنير لك أفكارك في مثل سرعة البرق.

وانتصب تشيلكاش واقفاً على قدميه. ومسح شاربه بيده اليسرى،

وهز قبضته القاسية كالحديد، وبدت شرايينه متفخة معقدة، واشتعلت

عيناه فخاف القروي وألقى على ما حوله نظرة سريعة قلقة، ووقف هو

أيضاً. وراز الرجلان بعضهما صامتين. وسأل تشيلكاش في قسوة: وأخيراً؟

وغلّت في نفسه مراحل الغضب، أمثل هذا الحمل الصغير يبينه؟

نعم لقد احتقره أول ما تحدث إليه، أما الآن فهو يكرهه: يكره فيه صفاء

عينيه الزرقاوين زرقة السماء، يكره فيه سمرة وجهه القروي، يكره فيه قوّة

ساعديه القصيرتين ويكره فيه أن له قرية، وأن له في هذه القرية منزلاً

ويكرهه لأن له في زاوية من زوايا الأرض عائلة تريد أن يكون لها صهراً،

ويكرهه أخيراً بل يكرهه على الخصوص، لأنه وهو المخلوق الحقير، لأنه

وهو القزم إذا قيس به، يدّعي أنه يحب الحرية.. نعم الحرية.. الحرية التي لا

يستطيع هو نفسه أن يدرك قيمتها.. الحرية التي لا تنفعه في شيء. وهكذا

خلق الإنسان أنه لا يستطيع أن يقبل أن يصبح الفرد الذي يعتبره دونه إنساناً مساوياً له، إنساناً يشاطره أهواءه ويشاركه في أحقاده.

- ولكننا اتفقنا.. أنا أبحث عن عمل، ولا يهمني أن أعمل لك أو لغيرك، وإذا كنت قد سبق أن قلت ماساءك فما ذلك يا أخي إلا لأنني لم أر فيك ملامح الرجل الذي يعمل، فثيابك ممزقة، ولكن هذا غير ذي أهمية فقد تتمزق ثياب الناس. قد تظن أنني لم أر قبلك سكران، والله يعلم أنني قد عرفت كثيراً من السكراني أكثر منك عربدة وأقسى وجهاً.

وترفق تشيلكاش وسكت عنه غضبه وقال له: - أولئ لك.. إذن فقد اتفقنا..

- طبعاً وما أجرتي؟

- هذا أمر يتعلق بنوع عملك وبمقدار وارداتنا، ويمكن أن أعطيك خمسة روبلات، أفهمت.

وبدا الفلاح منذ اللحظة التي ذكرت فيها الدراهم متهاكاً حازماً يلح على المسألة أيضاً وجلاء؟ وعاد إليه قلقه القديم، ورأى أن على معلمه الحديد تحديد أجرته تحديداً نهائياً وقاله له وهو شاكٍ مرتاب:

- لست راضياً على هذا الإتفاق إلا إذا قبضت الروبلات الخمسة حالاً.

ورأى تشيلكاش أن قد حان موعد تدشين عهده الجديد بالسيادة والسيطرة فقال له:

- كفالك بحثاً وتنفيياً.. سر بنا إلى الحانة..

وسارا في الشارع جنباً إلى جنب، أما تشيلكاش فكان يتصنع مظاهر

السيد المعتبر، ويفرك شاربيه، وأما الفلاح فكان يوارى تحت ستار من الخضوع الظاهري كل ما يجول في خاطره من ريب وحذر.
وسأله تشيلكاش: ما اسمك؟ - جافريلو.

ودخلا حانة سسم الدخان هواءها، ومشى تشيلكاش إلى منضدة وطلب في بساطة زجاجة من الخمر وحساء ملفوف ولحماً وشاياً كأنه زبون أمين ثم قال في اختصار: «قيد».

وأحنى النادل رأسه في صمت ومضى، فشعر جافريلو حين رأى هذه الثقة التي يوحىها معلمه إلى الناس جميعاً على رغم من مظاهره، وهي مظاهر مجرم محترف، باحترام عميق لهذا الرجل الذي يعرفه الناس جميعاً في كل مكان، ويعرفونه مثل هذه المعرفة الطيبة.
وقال تشيلكاش:

- سأخرج قليلاً في عمل هين، وسأعود فتحدث، انتظري دقيقة:
ثم خرج فأدار جافريلو بصره وفحص المكان الذي هو فيه: حانة في قبو تحت الأرض تسودها ظلمة رطبة، ويفسد هواءها دخان اللقائف، وتفعمها رائحة القطران، ورائحة أخرى غريبة لعلها العفن.

وجلس أمام منضدة جافريلو، رجل سكران أشقر اللحية يلبس لباس بحار تلطّخه بقع من الشحم والدهن، ويدمدم في صوت منكر فيه رنة بكاء وتصفير أغنية تهزه هزاً دائماً على رغم ما في كلماتها من تشويه: هو ولا شك غريب غير روسي.

وترأت في جانب من الحانة فتاتان شقراوان من مولدافيا، تلبسان أسماً بالية فغنتا في صوت حادّ رفيع.

ويدت هنالك في أقصى الحانة وجوه غريبة متوارية في الظلام
وشعور مشعثة، وسكارى يعربدون ويترنحون.

وشرع جافريلو، وقد أوحشته وحدته، يتمنى لو عاد إليه سيده. كان
كل ما في الحانة من أصوات وضوضاء يتجمع في نغم واحد، كأنها هو زئير
حيوان عظيم له مائة فم وفم، يبعث عبثاً عن مهرب ينجو من خلاله من
سجنه الحجري، وحاول جافريلو أن يلاحظ ما حوله فأخفق، فأجهد نفسه
ليلاحظ فأخفق، وكأن شيئاً مثل الإغماء يغشى عينيه ويثقل فكره، ولكنه في
نفس الوقت يهتجه ويثيره.

وعاد تشيلكاش.. فشرع يشربان ويأكلان ويتحدثان، وسكر
جافريلو بعد الكأس الثالثة، وأصبح ممراحاً يبحث عن كلمة حلوة يرضي
بها هذا السيد الشهم الذي أقام على شرفه هذه الوليمة حتى قبل استخدامه،
ولكن السكر كان قد أثقل لسانه وأبى أن ينطق بالكلمات الكثيرة التي
كانت تغد زرافات زرافات فتقف عند حنجرته لا تجاوزها، أما تشيلكاش
فكان يرمقه ويفحصه، وعلى ثغره ابتسامة ساخرة.

- أراك أصبحت رجلاً ناضجاً، أخمس أقداح صغيرة نعيمة بانسة
جعلتك غير قادر على العمل!

وتلجج جافريلو وقال:

- لا تخف يا صديقي، سأخدمك وسأكون سعيداً بخدمتك يجب أن

اعانقك، أسمح؟

- حسناً حسناً كأس أخرى.

وشرب جافريلو وأحس أن كل ما حوله يدور دوراناً منتظماً فآله

ذلك وأزعجه، وانطبعت على وجهه سياء الإلهام الطائش وحاول أن يتكلم فلم يطق فتح فمه فانطلقت منه نغمات قاسية مبهمه، وأطال تشيلكاش التحديق فيه وهو يبرم شاربه ويتسم ابتسامة أخرى، ابتسامة قاسية فيها وعيد.

وأفعمت الحانة العريضة والسكر وتام البحار الأشقر على منصدته ورأسه بين ذراعيه.

وأصدر تشيلكاش أمره وهو ينهض: هيا..

وحاول جافريلو أن ينهض فلم يستطع فانطلق في شتيمة مخيفة ثم في ضحكة سكرى حمقاء وقال له تشيلكاش: حقاً إنك عجيب.

وعاد فجلس أمام جافريلو الذي استمرّ في ضحكه وقد سمر أنظاره على سيده، وعاد تشيلكاش يدرس هذا الفلاح في برود وانتباه، وهو يشعر أن بين يديه رجلاً حياته وموته تحت برائته، وأنه قادر على تسخيره في أموره، وأنه يستطيع أن يلقي به إلى هاوية العدم كما يلقي بقصاصة من الورق، وأنه يستطيع أيضاً أن يخلق له في قريته منزلاً هادئاً مرموقاً، وجعل يتلذذ بهذا العشور: شعور أنه هو حقاً سيد مطاع، وأن هذا الرجل خادمه ومولاه، وأنه، هو الفلاح، لا يعرف أبداً تلك الأفراح التي شرب هو ثملتها فيما مضى في حياته، وأحس بالحسد والرحمة والسخرية والاشفاق على هذه الطبيعة الشابة الفجة التي قد تقع في يدي رجل لا يرحمها.. ولكنه أشفق على هذا الفلاح إشفاق أب جائر، أن له فيه حاجة.. وعندئذ أمسك تشيلكاش بذراع جافريلو ودفعه في رفق وأخرجه من الحانة ثم ألقاه في ظل كومة من الأخشاب، ثم جلس بالقرب منه وأشعل غليونونه وتلقت جافريلو لحظة ثم جمجم بشيء ثم نام..

- 3 -

وقال تشيلكاش لجافريلو وهو يمسك المجاذيف بيديه:

- والآن هل أنت مستعد؟

- دقيقة، السكان يضطرب، أضربه بالمجذاف؟

- كلا كلا! اعدده إلى مكانه، وشده بيديك.

وقاد الرجلان قارباً راسياً عند مركب شراعي وهما يبذلان كل ما في وسعهما ليحدثا أقل ما يمكن من حس وحركة، وسار القارب بين مجموعة من المراكب تحمل خشب جوز ومراكب أخرى أفرغت نصف ما تحمل من خشب ونخل وصندل وسرو.

الليل مظلم شديد الظلام، والغيوم كثيفة تمزق أثوابها قطعاً قطعاً في السماء والبحر هادئ ساكن كأنه محيط من الزيت صقيل تتصاعد منه رائحة طعمها رطب مالح، ولربما غنى غناء فيه حياة وخفر وداعب صخور الشاطئ ودغدغ جوانب المراكب وانساب فوقه قارب تشيلكاش في مهل وبطء وتراءت في عرض البحر أشباح المراكب الكبيرة السود، وقد نطحت سواربها السماء وعلى هذه السواري علقت مصابيح ذات أنوار مختلفات الألوان تنعكس على الأمواج فيبدو البحر منقطاً بنقاط صفير شاحبة تضطرب فوق سطحه المخملي الكثيف.

وكان البحر يثب وثبة جامحة في فترات منظمات، كأنها انبثقت في أعماقه قوة خفية ثم يعود فيستلقي وينام نوماً عميقاً كأنه عامل أرهقه يوم كامل من عمل مضمّن ساحق.

وقال جافريلو: - لك أمام.

وضربت المجاديف صفحة الماء.

- لنسبح

أدخل تشيلكاش قاربه بين مركبين وسحبه سحبا، واشتعل الماء بلهب أزرق فوسفوري عندما لامسته ألوح الخشب وامتدّ خلف القارب شقّ منير كأنه ثعبان من نار.

وسأل تشيلكاش صاحبه: ألريته الصداق؟

- لا، يُحَيِّدُ لِيَّ أن في رأسي جرساً يرن ويطنّ وسأسقيه جرعة ماء.

- ولماذا تسقي رأسك؟ أولى لك أن تسقي جوفك.

وقال جافريلو وهو يمسك بالقدرح الذي قدّمه إليه تشيلكاش:

- أنتظنّ ذلك؟ يارب غفرانك

وشرب فقرقر بطنه قرقرة راضيةً وصرخ به تشيلكاش وهو يمسك

يده:

- أسأت استعمال ما سمحت لك به، كفى. كفى.

ومضى القارب مرة أخرى في طريقه صامتاً مسرعاً في بابل من السفن والمراكب، ونفذ فجأة من ركامها وامتد أمام البحارين البحر الحمر العريض، واسعاً لا يحيط به بصر، عظيماً مشعشعاً.. واختلط هناك بالسما عند نهاية الأفق.. وتصاعدت فوق الأمواج نوع من غيوم سندسية خضر، ذات

حواش صفر، أو لازوردية كالبحر، أو زرقاء كالبحر، أو قائمة قتام الخمول
القلق الذي يُثقل الفكر. والغيوم في السماء يطارد بعضها بعضاً في اتزان
وتوأدة، ثم تختلط وتلتحم فكانها قطعة واحدة، ثم تفرق ألف قطعة وقطعة
فتداخل أشكالها وتمتزج ألوانها وأصباغها، ثم تعود فتجتمع في أشكال
جديدة هائلة خفيفة. وإنك لتحس كأن في حركة هذه الأشياء التي ليس فيها
روح نفحة علوية سامية، وإنك لتحس أن سوف تتصاعد من آفاق هذا
البحر إلى الأبد غيوم أخرى لا يحيط بها عدد، سوف تتصاعد رغبة في أمر
واحد: هو أن تخفي وراء حجابها الكثيف الذي لا يشف عماً تحته، هذه
الملايين من العيون الذهبية اللامعة التي يسمونها النجوم، النجوم الحاملة الحية
التي تنير هذه الأمواج الناعسة والتي تحمل إلى الناس المشدوهين بأنوارها
المقدسة أكثر آمالهم صفاء. وأسمى أمانهم شرفاً ونبلاً.

وقال تشيلكاش: البحر! أليس البحر جميلاً؟

وأجابه جافريلو: ليس بقيبح، ولكن ركوبه مُقلق.

كان يجذف في بأس وتوازن، وصوت المجاذيف لا يكاد يُسمع،
والشقّ الفوسفوري المنير يمتد ويمتد.

وتمتم تشيلكاش في احتقار: مُقلق! يا للتفاهة!

كان هذا الشقيّ الوقح يحبُّ البحر، إن مشهد هذه السعة التي لا
حدَّ لها ولا عقل ولا عائق يدغدغ دغدغةً مسرفةً نفسيته الظامئة إلى
الإحساسات العنيفة، ولقد آله جواب جافريلو، بل لقد رأى فيه إهانة
لعظمة هذا البحر الذي يحبه، وكان وهو يمسك دفة القارب يمزق
الأمواج تمزيقاً، وعيناه تائهتان في حلم بعيد ونفسه سابحة في رغبة جامحة

حادثة حارة: أن يبحر إلى ما شاء الزمان فوق هذا البساط العريض المخملي. كان حين يركب البحر تمتلئ نفسه بعاطفة عنيفة وناعمة في آن واحد، فيتطهر قليلاً من أدران الحياة التي يحياها، ويتذوق شيئاً من هذه اللذة حين يشعر أنه أصبح أكثر خيراً وأقلّ شراً في عالمه الجديد بين الأمواج والسماء، وحين يشعر أنه نسي في هذا الجو قليلاً من مرارة أفكاره، فتبدوله الحياة أقل قيمة وأدنى ثمناً. والبحر، في الليل يتنفس تنفساً خفيفاً كأنها هو نائم، وهو تنفسه هذا الهادئ اللطيف يحمل إلى قلب الإنسان نفحة من السلام، ويمجده به قليلاً عن مباءة نزواته الأثمة، ويحمّله حملاً رقيقاً إلى مرتع من نزعات سليمة صحيحة غير مريضة ولا سقيمة.. وسأل جافريلو صاحبه فجأة، وقد نظر إلى ما في القارب:

- ولكن قل لي أين الشبكة.

وانتفض تشيلكاش ثم قال: - هنا هنا...

وقال جافريلو في حذر: يا لها من شبكة.

- إنها قلوب...

وتلفع تشيلكاش فجأة بخجل قوي عنيف، ماله يكذب عليّ هذا الغلام، وعلام يخفي عليه غايته؟ ثم إن هذا الفتى قد انتزع بسؤاله عن غمرة أحلامه، فهو آسف عليها ومملّكه الغضب وأحس في صدره بتلك الحرقة التي طالما ذاقها وعرفها واختنق بهذا التناقض المفجائي الذي وقع فيه. فقال لجافريلو هذه الكلمات الطائشات:

- أنت هناك فابق في مكانك. فذلك خير لك. لا تسأل عما لا

يعنيك.

جئت بك لتجذف فقم بعملك واحفظ عليك لسانك إذا كنت تريد
أن تسلم بجلدك. أفهمت؟...

وانقطع القارب عن السير وارتفعت المجاذيف عن الماء المزبد
وارتجف جافريلو قلقاً وخوفاً.
- يتر يا... -

وانطلقت شتمة حانقة فضربت الهواء بسوطها، وانحنى جافريلو
على المجاذيف، وقفز القارب سريعاً غير منتظم، كأنها أصابه الذعر
واشتدت ضرباته.

وأصدر تشيلكاش أمراً جديداً: - حسن سيرك.
وانتصب وافقاً وغمس شعاع نظراته الباردة في عيني جافريلو
الأصفر الذي تحتلج شفتاه رعباً وهلعاً وتجمعت أعضاؤه حول نفسها،
وانحنى إلى أمام متوثباً، وصرف بأسنانه وقعقع عظام يديه...
ورنّ على سطح البحر صوت رهيب: - من هذا؟
وزجر تشيلكاش: - يا شيطان، جذف... لا ضجة يا كلب..
سأقتلك.

واحد اثنان. أصرخ: سأبعج بطنك.
ودمدم جافريلو. وقد هذه التعب والخوف:
- يا مريم العذراء.
وغير القارب اتجاهه في سر، ومضى إلى المرفأ، وقد أنارت الأنوار
الكاشفة سوارى المراكب.
ورنّ الصوت الرهيب مرة أخرى: - من هناك؟

ولكنه كان قد أصبح أكثر بعداً فعاد إلى تشيلكاش اطمئنانه وقال في اتجاه الصوت.

- أنت الذي تصرخ يا رفيق.

والتفت إلى جافريلو الذي كان ما يزال مستغرقاً في دعائه وقال:

- لقد كنت باسلاً يا أخي، لو عرفنا هؤلاء الأباسلة لقدمت جلدك جزاء، لو عرفونا لقدمتك طعاماً لهذه الأسماك.

كان تشيلكاش يتحدث في هدوء ورضا، أما جافريلو فكان ما يزال يرتجف خوفاً واهللاً:

- أرجوك. دعني أذهب! دعني أذهب! بحق المسيح! ألقيني حيث أردت.

هناك، هناك، هناك، هناك، لقد ضللت وأذنبت. خَفِ الله ودعني؟ وماذا تريد مني؟ أنا لا أستطيع معونتك في عملك. وأنا لم أقم به قط. يارب رحمتك. الجريمة الأولى. هلكت يا أخي، ماذا تصنع بي؟ تكلم قل لي جريمة وأسفاه مغامرة.

وسأله تشيلكاش في قسوة: وآية مغامرة هذه؟ آية مغامرة؟

سرّه خوف هذا الفلاح. ولذلك أنه وهو تشيلكاش، استطاع أن يخيفه مثل هذا الخوف.

- مغامرة... دعني يا أخي... بحق الله دعني. ماذا تستفيد مني يا صديقي؟

- اسكت. أكر تعلم أنني لو لم أكن محتاجاً إليك لما جئت بك. إذن فأسكت.

وسمعه تشيلكاش يصلي: إلهنا الذي في السموات... فقال له يتهره:
كفى... كفى.

لكن جافريلو شرع يتحب يائساً يائساً. أنه لم يستطع أن يحتمل أكثر
مما احتمل، وأن يصبر أكثر مما صبر. فأنّ وتمخّط، وتمخّط في مقعده، وهو ما
يزال يجذّف يدفعه اليأس والخوف.

ومضى القارب سريعاً كأنه سهم فاجتاز كسل المراكب مرّة أخرى
ودار على نفسه كأنه حلزون في الممرات الضيقة بينها.

انتبه إذا كان رأسك غالباً عليك فاخرس إذا نادانا أحد.
أفهمت؟

وكان جواب جافريلو الوحيد: آه.

ثم أضاف: قدر الله أن أضلّ وأهلك.

وصرخ تشيلكاش في صوت أجش مخنق:

- كفك خواراً.

وعند ذلك بلغت بلاهة جافريلو أقصاها، فصمّم على انتظار
نهايته في صبر وجمود، وبحركة آليّة أولج مجذيفه في الماء ثم ألقاها
وراءه، ثم أخرجهما من الماء، وغمسهما فيه مرّة أخرى، وعيناه عالقتان
بقبقابه الخشبي: في مهمة هذه الأمواج إنذار شديد ووعيد.
ها هو ذا المرفأ...

من وراء الحائط الحجري تتصاعد ضوضاء من كل نوع: أصوات
الناس، خرير المياه، الأغاني، الصغير، ودمدم تشيلكاش:

- قف، دع المجاذيف. أمسك الحائط بيدك. رويداً أيها الحيوان.

وانحنى جافريلو على الرصيف الناعم الأملس وزحف بالقارب على طول الحائط صامتاً أخرس. وقال تشيلكاش:

قف، هات المجداف. أين جواز سفرك؟ في الكيس؟ هات الكيس أسرع أسرع يا صديقي الطيب. لن تفر الآن، ستهرب بلا مجاديف، ولكنك لن تهرب بلا جواز. ابق هنا. وتذكر أنك لو نبست بكلمة واحد لقدفت بك إلى أعماق البحر، وقفز تشيلكاش فجأة وفي يده شيء ثم توارى وراء الحائط.

واعترت جافريلو هزة.. حدث هذا كله في سرعة غريبة، وخيل إليه أن معطف الخوف الثقيل الذي كان يجثم فوق صدره وهو في رفقة هذا اللص ذي الشارين الكبيرين، ذي الوجه الأجرد، قد سقط فجأة عن كتفيه.

الآن يجب أن يفر...

ونظر إلى ما حواليه وهو يفر زفرة النجاة والخلاص. هناك إلى يساره مركب اسود كسرت ساريتة فكانه تابوت فارغ ألقى هناك، وكأنه حين تلطمه الأمواج يفر زفرة قاسية رهبة صماء، وهنالك إلى يمينه سور المرفأ ينغمس في الماء كما تنغمس الحية الرقطاء ثقيلة باردة، وهنا من ورائه كتل سود أخرى لمراكب كأنها هياكل عظمية متصبية، وأمامه بين الحائط وبين المركب النعش تنبسط وحدة صامته يوحياها حائط ترصه الأمواج السود يتبع بعضها بعضاً ضخمة بطيئة ثقيلة ذات ظلال مخيفة، وكأنها مستعدة إلى اللقاء كلاكلها على الناس فتسحقهم سحقاً وتغمرهم غمراً وفي ثنايا الهواء يرغرف شعور حزين بارد مظلم زاد في خوف جافريلو بل لقد

كان هذا الخوف الوهمي طاغياً على الخوف الحقيقي الذي أوحاه تشيلكاش، وانقبض صدره، فكأنها هو خرقة بشرية محزنة ملقاة على مقعد القارب. وهيمن على ما حوله صمت عام شامل، لا يعكره معكر غير أنين البحر أنيناً خافتاً يَجِيئُ إليك معه أنه سوف يطغى على هذا الهدوء طوفان من الضجة والضوضاء غفيف جبار فيحطمه تحطيماً، طوفان سوف ينخفض هذا البحر خضاً فينتقلب أعلاه أسفله، وسوف يسوق في جنبات السماء الأربع قطعاناً من الغيوم السود، وسوف يمزق فوق وحدة هذه الأمواج اللانهائية كل ما على البحر من مراكب سود.

أما الغيوم فكانت لا تزال تمتد في الأفق في هدوئها القديم ولكنها تمتد دون انقطاع وتتصاعد من صدر البحر غيوم أخرى حتى لكان السماء نفسها أصبحت بحراً لجباً صاخباً يمتد فوق صدر بحر آخر صامت هادئ نائم.

وكانت بعض الغيوم توحى إليك أنها أمواج راكضة تسرع لك غزو الأرض وهي تحرك ذوائبها القائمة وكانت بعض الغيوم الأخرى تظهر كأنها حفر عميقة خطتها الرياح بين الأمواج وكانت هنالك غيوم أخرى تشبه تلك التموجات الرقيقة التي تبدو على سطح الموجة الكبيرة قبل أن تتحول إلى تاج من الزبد الأخضر.

سيطر هذا الهدوء الفاجع الهائل على جافريلو وأدرك حيثئذ أن أمنيته الأولى هي في أن يعود إليه سيده، نعم، لقد تأخر سيده في عودته!

كانت الدقائق تمر واحدة بعد واحدة في بطء يفوق بطء الغيوم التي تبحر نفسها جراً في السماء. وفجأة سمع في الماء وراء الحائط غمغمة خافتة

وانسياباً هادئاً ثم دمدمة كاد يسقط جافريلو ميتاً خوفاً منها وهلعاً. وقال
تشيلكاش في صوت أصم:
- أفانت نائم؟ خذ:

وسقط في القارب شيءٌ ثقيل مربع الشكل ثم تبعه شيءٌ آخر مثله
ومعدّة على طول الحائط شبح تشيلكاش الطويل، وظهرت مجاذيف القارب
في حركة سحرية وارتمى كيس جافريلو فوق قدميه ثم عاد شخص
تشيلكاش وهو ينفخ إلى مكانه عند السارية ونظر إليه جافريلو وهو يتسم
ابتسامة فرح وكآبة في آن واحد وسأله في حنان: - أنت تعبان؟ - قليلاً أيها
الحمل الوديع، عد مسرعاً وابذل كل جهودك وسيكون لك ربح وفير يا
أخي! الآن انتهينا من نصف قضيتنا وبقي علينا أن ننتهي من نصفها الآخر
فيجب أن نعبّر منطقة الخطر دون أن ترانا عيون هؤلاء الابطاسلة الملاحين.
وعما قريب تستطيع يا صاحبي أن تذهب وفي جيبيك دراهمك إلى صديقتك
ماشكا، فإن لك ماشكا تنتظر يا أخي. وانفتح صدر جافريلو وتشجّنت
يداه، وقال: - لا... لا.

كان الماء يضطرب تحت القارب، ويتسع الشق من ورائه، وتصعب
الغرق على وجه جافريلو ومع ذلك فقد ظلّ يجذّف بأقصى ما يملك من
سرعة وعزم. إنه ذاق في هذه الليلة طعم الخوف مرتين فجعل أكبر آماله أن
يتخلص من خوف جديد وأن ينتهي من هذا العمل الجهتمي سريعاً، وأن
يمس الأرض يقدميه، ثم أن يهرب من هذا الرجل هرباً قبل أن يقتله أو
قبل أن يلقي به في غياهب السجن شريكاً مجرماً.

قرر أن لا ينبس ببنت شفة وأن لا يردّ عليه بكلمة، وأن يقوم بتنفيذ

كل أوامره تنفيذاً حرفياً ونذراً، إن تخلص منه أن يرتل ترنيمة «القديس نقولا».

وتصاعدت من أعماق قلبه إلى ذرى شفتيه صلاة حارة خاشعة، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه فشهو شهوة شديدة كأنها زفرة مرجل بخاري وسكت، وهو يلقي إلى تشيلكاش نظرة شزراء أما هذا فكان يحني قامته العجفاء الطويلة إلى أمام كأنها هو طير جارح يهيم أن يطير، وهو ينبش الظلمات نبشاً بعيني عقاب وأنفه، وهو منقار نسر، يهتز في وعيد وتهديد، ويداه يسير القارب بإحداهما ويقتل بشانيتها شاربيه وكانا يهتزان اهتزازاً لا ينقطع فوق شفتين دقيقتين مشنجتين تشنجاناً آخرس.

انتصر تشيلكاش ففرح بنجاح مشروعه بادراكه لقيمتة الشخصية، بما استطاع أن يلقي في روع هذا الفلاح الذي أصبح له عبداً من خوف ورعب، وفكر في العيد العظيم القادم الذي سيحتفل به غداً، ولذلك أنه يراقب قوته وسيطرته وضعف هذا الفلاح الطاهر وعبوديته، وأحس أنه يشفق عليه وأنه ينبغي أن يواسيه فقال له في رفق:

- قل لي: هل خفت كثيراً؟

وقال جافريلو وهو يسعل ليخفق زفرة تحرق صدره:

- لا بأس.

- لا ترهق نفسك بالمجازيف، لرييق أماننا إلا تمر واحد صعب

فاسترح قليلاً. وأطاعه جافريلو فانتصب واقفاً ومسح بكم قميصه وجهه المبلل بالعرق ثم قبض على المجاذيف وقذف بها في الماء.

- انتبه وجذف في رفق فلا يسمع لمجاذيفك صوت فعلياً أن نجتاز
مراً مهلكاً.

رفقاً رفقاً، إن هنا يا صديقي أناساً لا يعرفون المزاح فلماذا مزحوا
كانت بنادقهم أداة مزاحهم، وعندئذ تُعرّض رأسك لاستقبال هدية جميلة
لا تتيح لك وقتاً تقول فيه آه...

وزحف القارب فوق صدر الماء هادئاً فلا ترى إلا قطرات من الماء
زرقاً فضية تسقط من المجاذيف، وتشتعل حين تلقى البحر أكثر تشعشعاً
ولهباً. وبدت عتمة الليل وصمته أكثر كثافة واتساعاً، وتراءت السماء محيطاً
صاحباً تكسوه الغيوم ثوباً ثقيلاً غير شفاف يستلقي فوق صدر البحر جائئاً
رابضاً، وبدا البحر الذي أصبح أكثر هدراً وظلاماً، كأنها أضاع شيئاً من لا
نهایتها وعوّض عنها برائحة حارة لافحة مالحة.
ودمدم تشيلكاش:

- حبذا لو هطل المطر، إذن لسرنا في حمايته.

وعن يمين وعن شمال في كتلة من الأمواج السود تبدو كتلة من
المراكب السودن تنصب أشباحها الساكنة المزعجة، ترجّح نور فوق ظهر
مركب منها، هنالك من يمشي يحمل مصباحاً.
ودمدم تشيلكاش: الجمر.

أحسّ جافريلو وهو يتلقى الأمر بالسير دون صوت، بقلق مشير عاد
فاستبدّ به مرة أخرى، وخُيّل إليه، وقد انحنى إلى أمام، وهو ينبش الظلام
نبشاً، أنه يكبر ويكبر، وأن عظامه وأعصابه أصبحت أكثر امتداداً، وأنها تؤله
الماً أخرس، وأن في رأسه ضغطاً شديداً وأن عموده الفقري يرتعش ارتعاشاً

راعداً وأن قد وخزت ساقيه ألف إبرة من جليد، وغشي عينيه حريق أشعله ما
بذل من جد في اكتناه ظلمات الليل، هذه الظلمات التي يتنظر بين حين وحين
أن يفاجئه فيها مفاجئ فيقول له: - «مكانك أيها الشقي».

وانتفض جافريلو مرةً أخرى حين سمع تشيلكاش يقول:

- الجمر ك....

وانفجرت في عقله فكرة حادة انتعشت لها أعصابه المرهقة أراد أن
يبعق وأن يصرخ بكل ما في فكيه وحنجرته من قوة: النجدة... النجدة...
بل أنه فغر فاه فعلاً، ولكن ماله وقد جُنْدَ له الخوف بسوطه يغمض عينيه
مصعوقاً ويقع خائر القوى فوق مقعده.

وانبثق من بين الأمواج المظلمة وأمام القارب في الأفق البعيد سيف
عظيم ذو لون أزرق لامع فوخز الظلام وخزاً ولامست الشفرة الملتهبة
وجوه الغيوم ثم رسمت على صفحة البحر خطاً عريضاً أزرق، فأبرزت
مراكب كانت سوداء يغمرها الظلام فأنارتها، وكأنها كانت هذه المراكب
منذ زمن بعيد قد ابتلعتها الأمواج على إثر عاصفة جاعحة وإذا بهذا السيف
الحاد يعيدها من جديد إلى سطح البحر لتأمل مرة أخرى في أمواج الماء
وعظمة السماء، وكان هذه الأخشاب والحرق التي تحيط بسوارها أعشاب
بحرية تشبث بهؤلاء العمالقة ثم تخرج معهم من أعماق البحر لترى ما يرون
وتسمع ما يسمعون.

وارتفعت شفرة النار المخيفة مرة أخرى فاخرقت حجاب الليل ثم
تمدّدت على جانب آخر من البحر، وهناك أيضاً برزت مراكب كانت منذ
لحظة متوارية في زوايا العدم.

وقف قارب تشيلكاش مترجّحاً كما تشاء له الأمواج أن يترجّح، فلو رأيته لقلت إنه إنسان متردد، وأما جافريلو فكان مستلقياً في جوف القارب قد غطى وجهه يديه ووكزه تشيلكاش برأس المجذاف وهو يشتم ويقول في صوت مختنق:

- هذا نور الجمر لك يا أبه.

هذا هو المنار الكهربائي.

أتريد أن تنهض أيتها النجس.

سيوجهون النور إلينا وستكشفنا غباوتك أيها الشيطان اللعين.

ودفع المجذاف دفعاً في كليتي جافريلو فانتصب واقفاً ثم جلس على مقعده وهو لا يزال يغمض عينيه خوفاً، وأمسك بالمجذاف وجعل يسير القارب.

- رويداً رويداً وإلا قتلتك. رويداً رويداً أيها الأبله. وعلام تخاف؟ أمصباح ومراة؟ أنقطة واحدة تخيفك. رويداً رويداً. أيتها الشيطان إنهم ينيرون البحر بمراة يديرونها كما يشاؤون رغبة في اكتشاف أمثالنا من طالبي النزهة والرياضة، فهم يكافحون التهريب. لا تخف لقد أصبحنا خارج منطقة الخطر ونجونا يا أخي. ومع ذلك.

وألقي تشيلكاش حواليه نظرة انتصار:

- نعم لقد نجونا.. آه آه.. إنك ذو حظ عظيم أيها اللوح المتفسخ.

كان جافريلو يجدف ولا يسمع ولا يجيب، وضاق عليه تنفسه، وفتح عينيه ليلمح الأفق الذي تضطرم فوقه الشفرة اللامعة صاعدة هابطة، وهو راها، ومرة، أن هذا هو مصباح وكيف يصدق وهذا النور الأزرق يخترق

الظلمة فيلقي على الأمواج ألواناً من كل نوع، وذلك ما لا يستطيع أن يفهمه وأحس من جديد أن قد أرهق دماغه ضغط مخيف، وقبضت على قلبه يد قاسية وشعر سلفاً بمأساة سوف تنزل بساحته، ولكنه ظل يجدف تجديفاً ألياً وهو مرهق خائر، لا أمل له ولا نفس فيه، يحني ظهره انتظاراً لضربة يتوقعها ستهبط عليه من السماء فتقضم ظهره قصماً، وقر من خلايا جسده كل ما فيها من حيوية إنسانية حطمتها هيجانات هذه الليلة اللبلاء.

وأما انتصار تشيلكاش فكان انتصاراً رائعاً. وأما نجاح مشروعه فكان نجاحاً كاملاً. فعادت أعصابه إلى سابق هدوئها واستقرارها، وهزت شاريه رعشة الفرح والغبطة، ولمع في نظراته شعاع من الرضا والطمأنينة، وشعر بالعافية تملأ برديه فصفر وملاً رثيه برطوبة هواء البحر ورأى جافريلو فابتسم له ابتسامة مفعمة بالصدقة والود.

واستيقظ الهواء فأيقظ البحر من رقاذه، وجعلت ألوف من الأمواج الصغيرة يزاحم بعضها بعضاً ويغزو بعضها بعضاً ورقت حواشي السحب وشفت ودغدغ النسيم صفحة الأمواج وبقيت هنالك مجموعة من الغيوم السود ما تزال غارقة في حلمها الوجيع.

- قم يا أخي فقد آن لك أن تصحو لكان روحك هزها الموت هزاً في جلدك محاولاً انتزاعها... وكأنك كيس محشو بالعظام. أيها الصديق الطيب لقد نجحنا.

هذا صوت إنسان يسمعه جافريلو فيدخل إليه الثقة والطمأنينة، وما عليه أن يكون هذا الصوت صوت تشيلكاش، وتتم في خفوت:

- سمعت.

- تعال . أيتها العجيبة الرخوة، فاجلس عند السارية وأستلم عنك
المجاذيف . فأنت مرهق .

وبدّل جافريلو مكانه تبديلاً آلياً، وأحس تشيلكاش أن صاحبه يكاد
يسقط لإعياء، فزاد هذا من شفقتة عليه، فربت على ظهره وقال :

- لا تخف ولا تجزع، فلك عندي جائزة ترضيك ... أيكفيك خمسة
وعشرون روبلاً؟

- لا أريد شيئاً، أريد فقط أن أطأ الأرض بقدمي .

وهز تشيلكاش يديه هزّة غامضة ثم بصق وقبض على المجاذيف
وألقي بهما بعيداً ..

وتمت يقظة البحر وغطى أمواجه بهالة من الزبد ثم ألقي ببعضها
فوق بعض فحطمها جميعاً على طبقة من الطحلب، فاهتز الزبد ورقص
وتفقّع، وملأت الهواء تمتمة عذبة كأنها نغم منسجم، وفرقة حلوة،
وعادت الحياة إلى الظلال .

- حدثني قليلاً عن مستقبلك، ستذهب عما قريب إلى قريتك
فتزوج، وتبذر الحقل، وستلد زوجتك كثيراً من الأطفال بنين وبنات، لا
تكاد تجد لهم خبزاً يكفيهم، وتقضي هكذا ما بقي لك من عمر، فهل يبدو
لك هذا اللذيذاً طيباً ...

وأجاب جافريلو في خجل ودهشة !:

- وكيف تكون مثل هذه الحياة لذيدة، ولكن لا بدّ مما ليس منه بد .

واستطاعت الريح أخيراً أن تظفر بتمزيق رداء الغيوم من ها هنا
ومن ها هنا، وبرزت من خلال هذه الشقوق سماء زرقاء تلمع فيها توالي

النجوم فتعكس أنوارها على البحر، على أواذي الأمواج حيناً ثم تختفي حيناً.

- خذ شمالاً، وسنصل عما قريب، هذا عمل مجيد حقاً، ليلة واحدة وخمسمائة روبل، أليس يستحق هذا ما بذلنا في سبيله من جهد وعناء.
وقال جافريلو في حذر: خمسمائة روبل!

واستبدَّ به اخوف، فراز بقدميه الطرددين المترنحين في بطن القارب ثم سأل ما هذا؟ - حرير. قليل الوزن كثير الثمن لو بعناه بأثمانه ربحتنا ألف روبل، ولكني لا أحب أن أغلّي بضاعتي أليس في هذا ما يضحك؟

وتنهَّد جافريلو وقال:

- هل هذا صحيح؟ آه... لو كان هذا صحيحاً...

وتذكر قريته النائية البائسة وأمه العجوز، وكل أولئك الأشياء البعيدة العزيزة التي هام على وجهه متشرداً في سبيلها ليجد عملاً، والتي من أجلها قاسى ليلته هذه ما قاسى من زعر أسود وموت أحمر، وبللت أمواج الماضي تراب ذاكرته وبدت له قريته تتمدد على صدر رابية، وقد جرى نهرها وراء رداء الصفاف والخور والعليق، وحملت إليه هذه الذكريات والخواطر شيئاً من الشجاعة وقليلاً من السلوى، فتصاعدت من قلبه آتة فيها حزن وفيها أمل:

- رحماك يا رياه.. ما أحلى الحياة..

- نعم سأراك، وأنا هنا، تهرع إلى قطارك ثم... سلام.

عليك يا قريتي العزيزة. وكأنني بك معبود الفتيات وحلم الصبايا. لا

يشغل بالك إلا أمر واحد: أين أنتقي؟ وستبني بيتك جديداً كله... بل
لعل هذا البيت الخشبي لا يكفيك.

- بيت خشبي. كلا: إن الخشب في بلادنا غال وعزيز.

- إذن فسكتفي بإصلاح بيتك القديم. ألك حصان؟

- حصان؟ نعم حصان أعجف عجوز.

- إذن فستشتري حصاناً قوياً.. وبقرا.. وغنماً.. ودجاجاً فما رأيك؟

- وعلام تحدثني عن كل هذا؟ حقاً.. أنا سأحيا حياة طيبة.

- نعم ستحيا حياة طيبة.. لقد تذوقت أنا كذلك أيها الأخ طعم هذه

الحياة..

لقد كانت لي حياتي الخاصة.. ومنزلي الخاص... وكان أبي فلاحاً غنياً

في قريتنا.

كان تشيلكاش يهدف في قوة وعنف، والقارب يقفز على ظهور
الأمواج والبحر ما يزال غارقاً في حجب الظلام يزداد ثورة وهياجاً ويرنج
هذين الرجلين اللذين ينظران إليه في غير اكتراث، وعيونهما تائهات في حلم
عميق بعيد...

ولريكن تشيلكاش، حين ذكر لصاحبه جافريلو قريته وحياته، إلا
راغباً في أمر واحد: هو أن يسكن من روع صاحبه ويدخل إلى نفسه شيئاً
من الهدوء والاطمئنان، ولكنه لم يدرك أنه سيكون هو نفسه هدفاً لسهامه، لم
يدرك أن ذكريات الأفراح القروية التي حُرِمَ منها منذ أميد بعيد، والتي ظنَّ أنه
نسيها ونسيها إلى الأبد، ستجرفه في تيارها جرفاً، لم يدرك أنه سيقع في الحفرة
التي حفرها ليقع فيها غيره، ولكن ذلك كله هو الذي حدث له، فما هو ذا

يشرع في ذكر عواطفه وحياته، ويعرض عن حياة الفلاح وعواطفه، ها هو ذا يتحدث في حماسة واندفاع:

- أرايت يا أخي؟ أن حرية الفلاح هي أغلى ما يملك، عيش سيد نفسك ليكن البيت الذي تسكنه بيتك لا يملكه غيرك، ولا عليك أن يكون رخيصاً صغيراً. لك أرض حقاً أنها ليست إلا قبضة من تراب. ولكنها أرضك أنت... لك دجاجتك ويضعها ولك بطتك وريشها.. إنك إذن ملك ذو تاج وذو عرش.

وشيء آخر: كن في حياتك ذا نظام. أشرق الصبح فانهض من فراشك وسر إلى عملك. الربيع يدعوك إلى عمل، والصيف يناديك إلى عمل آخر، والخريف يدفعك إلى عمل ثالث، والشتاء يطلب منك عملاً رابعاً. لك نهارك فجل فيه ما طاب لك أن تجول وصل فيه ما طاب لك أن تصل، فإن بيتك إذا أدير النهار وقدم المساء يفتح لك أبوابه ويقول لقد آن لك أن تستريح. وستستريح وتسعد وتعيش. قل لي بعد ذلك: أأست ملكاً؟

ومضى تيشلكاش في شاعرية واندفاع يعدد أفراح الفلاح ومزايا حياته وقد نسي نسياناً كاملاً ما على الفلاح من تبعات وجافريلو يصغي في دهشة وفي حماسة، وقد أنساه هذا الحوار كل ما فعله به صاحبه، وأصبح لا يرى فيه إلا فلاحاً مثله، فلاحاً لاصقاً بالأرض، وبما تقتضيه من أعمال، وبما طوته في بطونها من جهود أجيال متتابعة قبله وأجيال كثيرة بعده، وجيل حاضر فتي، فلاحاً ترك أرضه مختاراً وهرب من متاعبها وطلباتها، وها هو ذا يندم لفراقها ويأسف لتركها ويلقى على فراقه هذا عقاباً قاسياً شديداً.

- نعم... نعم أيها الأخ... آه ما أصدق قولك. لنضرب، حياتك أنت نفسك لقد تركت الأرض.. وظننت أنك قد تخلصت منها ولكن ما هي الأرض في نظرك الآن. إنها الأم الحنون التي لن نستطيع نسيانها.. وفجأة عادت إلى تشيلكاش نفسه كلها فوجدها وجداناً كاملاً وشعر في صدره، بحرقة نائمة لاهبة يشعر بها عند كل وصمة تلتطخ حبه لذاته، كمغامر لا عمل له ولا مال عنده، وأشد ما في هذه الوصمة الحاضرة أنها صيدرت عن شخص لا قيمة له ولا وزن، فانتفض وقطع حديث القروي الطائش وقال: - يالك من ثرثار. أظن أني صدقتك في حديثي عن القرية؟ كلا فأنا أكثر قيمة مما تسمع وتظن. ورجع إلى جافريلو حياة وخجله فقال في تردد: - أي رجل أنت؟ لست أتحدث عنك، ولكني أقول إن هنالك كثيراً من الناس مثلك، وأسفاه. إن على الأرض كثيراً من الأشقياء، من الحفاة العراة. وأصدر تشيلكاش أمره حاسماً قاطعاً: - خذ مجاذيفك أيها العجل... وبذل تشيلكاش جهداً ليخنق ما يضطرب في حلقه من شتائم. وتبادلا مكانيهما، ومرّ تشيلكاش وهو في طريقه إلى المقعد بالطرددين وأحس برغبة جامحة تدفعه إلى أن يقذف بجافريلو فيلقيه في البحر، ومع ذلك فما كان يستطيع أن ينظر إليه في وجهه، وسكت الرجلان. ووجد تشيلكاش في هذا الصمت نفحة من نفحات القرية وجعل يستعرض ماضيه ونسي القارب الذي جمع به عن الشاطئ إلى عرض البحر، وكان الأمواج التي دفعت به تعرف أنه يسير إلى غير هدف فعبت به عبثاً وأرقصته رقصاً، واستعرض تشيلكاش صور الماضي كله، وهذا الماضي العجوز الذي يفصله عنه أحد عشر عاماً

قضاها متشرداً تائهاً، أحد عشر عاماً تفصل بين حاضره وماضيه كأنها حائط شاهق من حجر، ورأى أمه الفلاحة السمينة ذات الحدود الحمر والعيون العسلية الطيبة، ورأى أباه العملاق ذا الذقن الصهباء والطلعة المتجهمة ورأى نفسه خطيباً ثم عروساً. وتذكر زوجته (انفيسا) وعينيها السوداوين، وشعرها الطويل، زوجته البضة الناعمة المرحه.. ورأى أنه أصبح جندياً متعجرفاً فخوراً من رجال الحرس القيصري، وعاد فتذكر أباه وقد وخطَّ الشيب فوديه وهذا التعب جسده، وأمه وقد قصَّصَ الجهد ظهرها قصصاً فجعلت تمشي وعيناها في الأرض، وتذكر ذلك العيد عندما عاد إلى القرية من الجندية فاعتزَّ أبوه بولده «غريشكا» ذي الشارين المتفخين كشاري الهر، بهذا الجندي القوي الذي كان زير نساء القرية.. تلك هي الذكريات.. الذكريات التي تزيد البائسين بؤساً، الذكريات التي تبعث الحياة في الأشياء الميتة.. الذكريات بما فيها من حسنات ومن خطيئات يلقي فيها بنفسه، وقد فقد كل أمل في تحسين المستقبل، في أحضان حب الماضي حباً شاذاً عضيباً ليس فيه نفع ولا من ورائه خير. ودغدغت تشيلكاش نفحة صامته هبت عليه من ذلك الجو الذي رآه حين ولد ورأت فيه النور عيناه، نفحة تهمس في أذنيه نغمات الحنان، حنان أمه، ونصائح أبيه. وهكذا استطاعت نفخة واحدة أن تنفذ إلى قلب هذا الفلاح الجبار فيتذكر كل ما نسي من أنعام ونأمات، ويستعيد كل ما تنشق من عطور وطيوب تنبعث حارة دافقة من جنبات الأرض حين ينجلي عنها الثلج في الربيع، وتنبت طيبة منعشة من شقوق الفلاحة الحديثة، ومن تلك الحقول التي يكسوها القمح بساطاً أخضر من حرير.

ولكن ها هو ذا يمدّ يده فيمزق ثوب الذكريات ويعود إلى حاضره
 طريداً متشرداً وحيداً، لا أسرة له يأوي إليها، ولا بيت يلجأ إليه، محروماً
 إلى الأبد من تلك الأرض الطيبة التي يُدينُ لها بما يجري في عروقه من دم
 وحياة. وسأل جافريلو صاحبه: - إلى أين نسير؟ وانتفض تشيلكاش ثم
 تلقّت حوالبه كأنه وحش وقع في فخ ثم قال: - لا شيء... أسرع..
 وصلنا. وعاد جافريلو يسأله ويتسّم: أكنت في منام؟ وتطلّع إليه
 تشيلكاش متقصياً أعماقه، وعاد إلى الفلاح هدوؤه، بل قد أصبح مطمئناً
 غير قلق، بل قل أنه أصبح فرحاً مرحاً، بل إنه يكاد يكون فخوراً. أنه
 شاب وأن أمامه حياة طويلة مديدة. - أنا متعب جداً... والقارب يقفز.
 - نعم إنه يقفز، ولكن هل نجونا من خطر القبض علينا وعلى هذين؟
 ورفس برجله الطرددين المتمددين. - كلا.. لا نخش شيئاً.. سأسلمهما
 وأقبض ثمنهما فوراً. - أنعمائة روبل؟ - على الأقل. - إذن فتلك
 ثروة... حبّذا لو كانت لي... إذن لفعلت بها وفعلت. - أفي قريتك
 ستعيش وتعمل؟

- نعم.

ومضى جافريلو يسبح في أحلامه، وتشيلكاش ساهم شارد، تشعث
 شارباه، وابتلت ثيابه بالماء، وغارات عيناه في محجريهما، وانطفأ بريقهما
 انطفاء، وتبدى خائر القوى يستحق الشفقة والرحمة واختفى ذلك النصر
 الجارح الذي كان في أبراده: إنه ليس إلا رجلاً معدماً فقيراً، قذر الثياب،
 تائه في ضباب من الأوهام تفل القوة وتقتل العزيمة.
 - أنا متعب، مرهق. وسكت ثم قال: - وصلنا.

وحول وجهة القارب في سرعة إلى كتلة سوداء عائمة على سطح الماء، والسماء مرتدية ثوباً من الغيم وحيد اللون والشكل، والمطر ينهمر ويضرب ذرى الأمواج ضربات واضحة.
- قف! رويداً رويداً.

ولمست مقدّمة القارب جانب مركب هناك، واستطاع تشيلكاش أن يمسك حباله بعرجون كان معه ثم صاح: أينما الشياطين في مثل هذا الوقت؟ السّلم مرفوعة، والمطر يهطل كأنه لا يستطيع أن يهطل قبل الآن.
- أينها الحشرات! أين أنتم؟

وسأل سائل لا يكاد يُسمَعُ صوته: أهذا أنت يا تشيلكاش؟

- هيا أنزل السلم - أهلاً وسهلاً.. أنزل السّلم يا عفريت.

- مالك متجهماً؟؟ - اصعد يا جافريلو.

وكانا بعد دقيقة واحدة، على ظهر المركب.

هناك في جانب من جوانب المركب ثلاثة رجال طوال اللحي يتحاورون ويصّون من خلف السّلم قارب تشيلكاش، وجاء رابع إلى تشيلكاش يجر ثوبه فصافحه وهو لا يتكلم، ثم نظر إلى جافريلو في حذر، وقال تشيلكاش:

- دع الدراهم لديك لك غد. أما الآن فأنا أريد أن أنام. تعال يا

جافريلو. هل أنت جائع؟

- كلا ولكنني أكاد أسقط نعساً.

ومضت خمس دقائق فإذا بجافريلو قد غطّ في نوم عميق صاحب فوق ظهر المركب. وجلس تشيلكاش وخلع نعله يصلحها هكذا، غاضباً

حزيناً، ينفخ ويبصق، ثم تمدد على ظهر المركب. إلى جانب جافريلو ولم
يتكلف خلع نعله الأخرى، ووضع يده على وجهه، ومطاً شفتيه.
كان المركب يترجح على موجات البحر الخفيفة، وقد انبعث منه
صرير خشبي حزين لا يُعرف مكانه، وقطرات المطر تسقط ميتة على ظهره،
وقد حومت في الهواء كآبة عامة شاملة، ترافقها شكوى ناعمة كأنها أغنية
ترتلها أم على سرير ابنها وقد يشت من سعادته.
ورفع تشيلكاش رأسه وألقى حواله نظرة، ثم عاد فتمدد وهو
يلمذم، وكأنها هو، في استلقائه، شعبتا مقص ضخم كبير.

أفاق تشيلكاش فانتفض انتفاضة القلق، ولكنه سرعان ما عاد إلى طمأنينته، ونظر إلى جافريلو وكان ما يزال يغطّ في نومه ويشخر وقد علت وجه هذا الطفل القروي ابتسامة رائعة، وتنهد تشيلكاش ثم هبط سبّلاً من حال ومضى، وأشرق النهار حزيناً متجهماً كأيام الربيع.

وغاب ساعتين، ثم عاد ووجهه زاهي اللون، وشارباه مفتولان في عزّة وفخار، وابتسامته عريضة مفعمة بالعطف والحنان، وحذاؤه عال متماسك، وسترته وسرواله جديدتان نحاسيتان من نوع لباس الصيادين. نعم إن لباسه هذا رثٌ قليلاً ولكنه جيّد، يخفي ضمور صاحبه ويهب له منظر الرجل الممتلئ.

ودفع جافريلو بقلمه صارخاً: هيا هيا أيها الحمل الصغير.
واستيقظ جافريلو مذعوراً يرتجف، ولم يعرف سيّده أول الأمر فنظر إليه في خوف أضحك تشيلكاش، فصرخ الفلاح وقد عرفه:
- ما أجمل هذه الشيايب. كأنك وجيه كبير.

- وجاهة مؤقتة ذاهبة عما قليل، قل لي كم مرّة ظننت هذه الليلة أنك ميت لا محالة.

- كثيراً، تلك أول مغامرة أشترك فيها.

- وهل ستعود إلى مثلها.

- أعود!! يجب أن أعرف أولاً مقدار ربحي. هذا هو المهم.

- مائتا روبل.

- مائتا روبل؟ أنا موافق.

- وروحك؟

- روحي قد لا أفقدها. وقد يُتيح لي هذا العمل أن أبقى رجلاً ما

حييت. وجعل تشيلكاش يضحك.

- حسناً.. حسناً فاستعد فسنعود.

وهبطا إلى القارب وأخذ تشيلكاش الدفة وأمسك جافريلو بالمجداف. الغيوم السوداء تغطي السماء، والبحر الهائج يبعث بالقارب على ألحان الأمواج التي ترشها بمائها المالح، وبدا هنالك في الأفق البعيد أمام القارب، المرفأ وقد رسم خطأً رملياً أصفر، وامتد من ورائه بحر صاحب تندافع فيه الأمواج كثائب، متوجة بالزبد وعن يمينها مراكب تترجح وتميس، ومن خلال غابة الساريات، بدت منارة المدينة البيضاء تتصاعد منها ضوءاء كأنها تحملها أعناق الأمواج فتخلطها بضوضائها الصافية العظيمة. وهيمن على هذه الأشياء كلها ضباب خفيف كأنها هوشوب يفصل بين الأشياء ويسجن في حدوده كل الأشياء.

وأشار تشيلكاش برأسه إلى عرض البحر وقال:

- سيرقص البحر الليلة رقصة هائلة. وسأل جافريلو، وهو يجذف

بقوة، والرداذ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

- أعاصفة؟

- نعم.

ونظر إليه في اهتمام ثم سأله وقد رأى صمته:

- كم أعطوك.

ومد تشيلكاش يده إلى عبه فأخرج شيئاً قلّته إلى جافريلو ورأى هذا الولد أوراقاً مالية مختلفة الأشكال والحجوم والألوان وخيّل إليه أنه يرى قوس قزح.

- كنت أظن أنك تبجح تبجيحاً، وكم؟

- خمسمائة وأربعون روبلاً، أليس هذا عملاً؟

وتتم جافريلو: - لا شك.. لا شك.

ونظر إلى المال... خمسمائة روبل... وأربعين روبلاً؟ نظرة جشعة وتشيلكاش يعيدها إلى عبه، وقال وهو يفر زفرة حاقة:
- حبذا لو كانت لي..

وقال غريسكا في حماسة: ستحتفل بزفافك أيها الأخ، وسأعطيك أجرك فلا تعجل.. سأعطيك أربعين روبلاً فهل أنت مسرور؟ أتريدها الآن؟

- حقاً إني أريدها.

واضطرب الفتى ترصداً وترقباً. وفي قلبه رغبة جامحة تأكله أكلًا.
- خذ إيتا الأخ، أرجوك، أستحلفك إلا ما أخذتها. أنا لا أعرف أين أضع هذه الدراهم فخلّصني منها. خذ.

وناول تشيلكاش جافريلو أوراقاً من ذوات العشر، وقبض عليها القروي بيده التي ترتعش وترك المجاديف ثم دسّها في طيات قميصه،

وغمز بعينه وتنفس تنفساً عميقاً كأنها هو بشرب شراباً حاراً. وتشيلكاش
ينظر إليه ضاحكاً ساخراً.

وعاد جافريلو إلى المجدف، يده في هياج واضطراب وعيناه
مطرقتان، وأذناه وكتفاه ترتعش ارتعاشاً.

- ويلك. ما أكثر جشعك، وثقافتك. إذن فهذه هي أخلاق
الفلاحين.

وصرخ جافريلو وقد استبدت به الحماسة وهزه الطرب:

- ما أعظم هذه القوة التي يهبها المال للناس.

وجعل يدمدم ويتمم كلمات غامضة سريعة متابعاً عرض فكرته،
ملقياً محاضرة طويلة متقطعة عن الفروق الهائلة بين حياة الفلاح والغني
حالماً بعالم الشهرة والرفاهية والحرية واللذة.

وأثار موقفه هذا دهشة تشيلكاش واهتمامه، فأصغى إليه متجهماً
الوجه، وقد أفعمت عينيه أفكار كلها أسرار، وعلى شفثيه ابتسامة وقال
فجأة - وصلنا.

وحملت الموجة القارب فألقته على الرمل.

- فرغنا، لم يبق علينا إلا أن نجرّ القارب إلى مكان بعيد كيلا يحمله
البحر وسيأتي صاحبه فيأخذه. والآن أيها الأخ إلى اللقاء. إنَّ المدينة على بعد
ثمانية فراسخ وأنت عائد إليها أليس كذلك؟

وتابع تشيلكاش ابتسامته في وداعة ورفق وكأنه يتأمل عملاً لذيداً لا
يفهمه جافريلو، الذي كان لا يزال يُخفي يده في عبه ويداعب أوراقه المالية
الصقيلة ويفركها فركاً.

- لست أريد الذهاب إلى المدينة.. بل أريد..

واختنق صوت جافريلو، فقد ثار في جوفه بركان من الرغبات والكلمات والاحساسات كلها تندافع وتعتلج وتتصادم وأحرقته حمى باردة راعدة، وراه تشيلكاش فُصِّقَ وقال:

- ماذا جرى لك؟

- لا شيء! لا شيء.

وتتابعت على وجه الفتى مواكب أحمرار وأصفار، وكان ينبش الأرض بقدميه نبشاً ثم يمهدا تمهيداً كأنه يهْمُ أن يقفز على تشيلكاش أو كأنه صريح رغبة جامحة لا تتحقق.

وأقلق تشيلكاش هياج جافريلو، وتساءل متى تنتهي والألم ستنتهي نوبته العصبية، وجافريلو يضحك ضحكاً جنونياً شاذاً كأنه يتحجب انتحاباً، ورأسه مطرق إلى الأرض، يخشى أن يرى تشيلكاش وجهه، وأذناه تحمران تارةً وتصفران أخرى. وقال تشيلكاش:

ويلك! ماذا بك؟ هل أنت لي عاشق منذ الساعة، فلا تريد أن تفارقني؟! وهذه الحركات الصبيانية ما معناها؟ قل لي أيها المضحك الصغير وإلا مضيت.

وصرخ جافريلو صرخة صاعقة:

- تذهب؟

واهتز الشاطئ كله لهذه الصرخة، واهتزت لها الصحراء ذات الرمال بل لقد اهتز لها تشيلكاش.

وأكب جافريلو فجأةً على قدمي تشيلكاش وجذبها جذبة عنيفة

أفقدت تشيلكاش توازنه فسقط على الأرض، ورفع يده يهيم أن يضرب.
وصرف بأسنانه ثم كفَّ حين رأى نظرة جافريلو قلقة مستغيثة راجية.

- هب لي هذا المال يا أخي اسألك بالمسيح إلا ما وهبته لي، وما
عساك تصنع به؟ إنه عمل ليلة واحدة... ليلة واحدة وكفى. أما أنا فسأنفق
سنين طوالاً لأجمع مثله... هب لي هذا المال.. في سبيل الله.. في سبيل سلام
روحك وطمأنينة نفسك.. سأقيم لك صلوات في ثلاث كنائس، أنك
ستبدد هذا المال هنا وهناك.. أما أنا فسوف أحفظه.. سأطمره في الأرض
طمرأ.. رحماك هب لي هذا المال الذي لا يفيدك.. إنك غير حريص عليه.
وأنت الذي تستطيع أن تكون غنياً في ليلة واحدة.. أحسن إليّ هذا
الإحسان مرة واحدة في حياتك.. إن الله قد غضب عليك وطرده من
رحمته وستبقى هكذا ضالاً شريداً، ولن تعود أبداً إلى صراط الله المستقيم،
أما أنا.. آه.. هب لي هذا المال...

جلس تشيلكاش محتبياً قلقاً وظلّ صامتاً وعيناه جاحظتان يراقب
هذا الفلاح الذي يقضم نفسه قضمًا تحت أقدامه، ويضع رأسه على ركبته
ويردّد توسلاته وتضرعاته في صوت متهدّج متقطع، وبقي هكذا لحظات
ثم دفعه بيده وقفز وافقاً ومدّ يده إلى جيبه فأخرج كومة الأوراق الملونة
وقذف بها في وجه جافريلو صائحاً.

- خذ إليها الكلب وكل.

كان يضطرب غضباً وحقداً وحناناً واحتقاراً في وجه هذا الجشع
العبد المنحط وأحس حين قذف بالمال أنه بطل من الأبطال، ولعلت في
عينيه بارقة رائعة:

- أردت أن أكافئك مكافأة كبرى. أشفقت عليك أمس.. تذكرت القرية وقلت: سأساعد هذا الفلاح. وترقبت أعمالك وجرأتك في طلب المال، أيها الشحاذ الحقير. إنك لجرثومة، أيمن أن ينحط الإنسان إلى هذا الدرك من السفالة في طلب المال، وأن يعذب نفسه مثل هذا العذاب في السعي وراءه. إنك من أحفاد أولئك الأنذال، أولئك البخلاء الأبالسة الذين لا يعرفون للكرامة معنى... والذين يبيعون أنفسهم وأهليهم لقاء كويكات.

- آه يا صديقي جزاك الله خيراً، أنا الآن غني، غني أملك الألوف. أنا غني. لن أنساك أبداً يا صديقي العزيز، وسأحمل زوجتي وأطفالي على الدعاء لك والترحم عليك.

ونظر تشيلكاش إلى جافريلو يهتز طرباً ويقفز سروراً ويطمّر الأوراق المالية في طيات ثيابه، ورأى هذا السيل الدافق من الفرح وتأمل هذا الوجه الذي غيره هيجان البخل الراضي.. ولذّ له أنه وهو اللص المتشرد الشقي لم ينحط ولن ينحط أبداً إلى هذا الدرك من السفالة والخنوع والتكالب والجشع، وأعجبه من نفسه ما عرفه فيها الآن من حرية جريئة وفرح بها أدرك فجعل يحاور جافريلو ويطل حواراً في هذا الشاطئ المقفر وصرخ الفلاح وهو يُشيع يد تشيلكاش لثماً وتقبيلاً وتشيلكاش يتسم ويصمت ويؤدّي أسنان ذئب. صرخ الفلاح مندفعاً في تيار فرحه وسروره:

- سأخبرك بتلك الفكرة التي خطرت على بالي. عندما أخرجت لي طبقات المال المكدسة وأريتنيها لقد قلت في نفسي عندئذ: - «حبذا لو قذفت به، بك، بضربة صائبة بالمجداف.. إذن يصبح الكنز لي، أما الجثة

فألقيها في البحر» الجثة جثتك، أفهمت؟ «ومن ذا الذي يزعبه غيابك؟»
ولو وجدوك لما بحثوا عن أسباب موتك ولما فتشوا عن قاتليك. وعلام
يبحثون ويفتشون؟ وهل أنت من الناس الذين يتصر لهم الناس. إنك لا
تنفع أحداً ولن يدافع عنك أحد ولن ينصرك أحد. أليس هذا صحيحاً؟
وزعق تشيلكاش وقبض على عنق جافريلو ويخنقه:

- ابصق المال.

وحاول جافريلو أن يتملص مرة أو مرتين فطوقه تشيلكاش بنزاعه
ثعباناً من نار ومزق ثيابه، وإذا بجافريلو ملقى على الأرض، وعيناه
مجنونتان يضرب الهواء بيديه ويتخبط تخبط الأعمى المملوع، وأمامه وقف
تشيلكاش منتصب القامة، يكثر عن أنيابه تكشيرة خفيفة ضاحكة في مرارة،
ناقمة تهز شاربيه هزاً كأنه نسر مفترس أو كأنه حيوان من الأساطير.
إنه لم يعرف في حياته كلها صدمة مثل هذه الصدمة تصيب سويداء
قلبه بالرولوعة أنه لم يشعر في حياته كلها بمثل هذا الغضب الوحشي.

وسأل جافريلو: - والآن هل أنت سعيد؟

ثم أدار له ظهره ومضى إلى المدينة، وهو لا ينقطع عن الضحك،
ولكنه لم يكدهمضي خطوة أو خطوتين حتى زحف وراء جافريلو زحفاً
كأنه هر، ثم أمسك بحجر من صوان مدور ورماء به وهو يصرخ: - خذ
هذا.

وصرخ تشيلكاش صرخة اليمّة، ولمس بيده نافوخه وترنح ليسقط
ولكنه التفت إلى جافريلو ثم ترامى على الأرض كأنه حمل ثقيل، وجهه في
الرمال وحرك رجليه وحاول أن يرفع رأسه ودمدم في أنين كأنه أنين وتر

مشدود، وعند ذلك فر جافريلو مسرعاً راكضاً إلى غيمة ممزقة ترسل ظلّها على السهل الغارق في الضباب، وتوالت الأمواج على رمال الشاطئ تثب تارةً وتتقهقر أخرى تسوق معها الرمل ثم تعيده، وهطل المطر رذاذاً بادئ بدء ثم انهمر واتصل كأنه خيوط من ماء تهبط من السماء وتتداخل فتكون ستاراً كثيفاً يفصل بين السهل والبحر، وانقضى زمن طويل والمطر ما يزال ينحدر في ينابيع متدفقة فوق هذا الجسد الكبير الذي فقد الحياة فوق الرمال قرب الأمواج.

وطلع من خلال الضباب جافريلو يركض ركضاً فكأنه طير يطير، واقترب من تشيلكاش وجثم قربه وحاول أن يحوّل وجهه عن الرمل، وغطّى يده سائل حار أحمر فاختلج وتراجع مذعوراً مجنوناً ثم عاد يوشوش في أذن تشيلكاش على نغمات المطر المنهمر: - قم يا أخي! - قم يا أخي! وصحا تشيلكاش من إغماءته وعاد إليه صوابه فدفع جافريلو وقال في صوت أجش أصم: - اذهب عني.. اذهب عني.

وتمتم جافريلو وهو يلثم يدي ضحيّته:

- عفوك عني.. عفوك عني.. لعن الله الشيطان.

- اذهب عني.. اذهب عني.

- سامحني.. اعف عن جريمتي يا أخي!

وبذل تشيلكاش كل ما في وسعه فجلس على الرمل، ووجهه أصفر خيفة صفوته، ثم أغمض عينيه وكأنه لا يزال ناعساً ودمدّم: لقد فعلت فعلتك فاذهب عني واهرب مني..

وحاول أن يدفع بقدميه جافريلو البائس الهالك فلم يستطع وكاد

يقع فأمسك الفلاح كتفيه، وتقارب وجها الرجلين فأثارا الخوف والشفقة في آن واحد.

وبصق تشيلكاش في عينين مفتوحتين. هما عينا مساعده في هذه الليلة، ولم يحتج جافريلو ولم ير بل مسح في حياء بكم قميصه بصقة صاحبه وجعل ينتحب:

- أفعل ما شئت بي، فلن أقول كلمة واحدة... ولكن سامحني واعف عني بحق المسيح.

وصرخ تشيلكاش في احتقار:

- أيها الأبله الذي ليس قادراً حتى على السرقة:

ومزق قميصه تحت سترته ولم يتكلم وظل مكشراً عن أنيابه ثم شرع يعصب رأسه بقميصه وسأل جافريلو: - هل أخذت المال؟
- كلا يا أخي أنا لم أمسه. وأنا لا أريده إن فيه شقائي.

وسحب تشيلكاش من جيب رداؤه كدسة من الأوراق، وأخذ ورقة واحدة منها ثم ألقي بسائرها إلى جافريلو وقال: - خذها واذهب.
- لن أمسها. لا أستطيع. سامحني.

وزعق تشيلكاش وهو يقلب عينين هائلتين:
- قلت خذها لك.

ودمد جافريلو متردداً:

- سامحني أولاً وسأخذها بعد.

وسقط على قدمي تشيلكاش فوق الرمل الذي ما زال يهطل عليه المطر. وقال تشيلكاش في قوة وعزم:

- أنك كاذب وستأخذها على كل حال .

ثم قبض على شعر جافريلو ورفع رأسه في صعوبة وألصق الأوراق على وجهه وقال:

- خذ... خذ... فأنت لم تعمل مجاناً، ولا ينجلك أنك حاولت قتل رجل، وهل يهّم الناس رجل مثلي: إنهم لو علموا بك لأقبلوا يهثثونك على شجاعتك.. خذ.. خذ... ولن يعرف أحد عملك العظيم الذي تستحق عليه التمجيد والإكرام.

وضحك تشيلكاش فكأنها أزاحت ضحكته عبثاً ثقيلاً عن كتفي جافريلو فأمسك بالمال وقال لصاحبه وهو يبيكي: - ألا تعفو عني يا أخي؟.. ألا تسامحني؟..

وسخر تشيلكاش فردّد كلماته: - يا أخي.. يا أخي..

ثم وقف مترنحاً وقال:

- وعلام أعفو عنك؟ بل علام تطلب عفوي؟

اليوم دورك وغداً دوري...

وردد جافريلو كثيراً رأسه: - آه يا أخي.. آه يا أخي..

وشدّ تشيلكاش قامته، وعلى ثغره ابتسامة غريبة، واحمرت العصابة التي حول رأسه رويداً رويداً ثم أصبحت وكأنها عمامة تركية حمراء.

وهل المطر وابلاً غدقاً، وتصاعدت من قلب البحر شكوى صماء رددتها الأمواج على الشاطئ، ولفّ الصمت الرجلين.

وأخيراً قال تشيلكاش ساخراً بارداً: إلى اللقاء.

وشدّ على ساقيه المترنحتين شدّاً، وأمسك بيديه يخشى أن يقع على الأرض، وناداه جافريلو راجياً متوسلاً.

- يا أخي!.. عفوك عني.. سامحني.

- وعلام أعفو عنك؟

ومضى يمسك رأسه بيده اليسرى ويقتل شارييه بيده اليمنى في رفيق وهوادة، وبقي جافريلو في مكانه واقفاً لا يتحرك حتى توارى عن عينه شبح سيّد ليلته وراء المطر الذي ما يزال ينهمر في ستار كثيف لا يظهر من ورائه شيء، ويُغرق الأرض بضباب كثيف قائم كأنه الفولاذ.

وانتزع جافريلو قبعته المبللة بالماء ورسم على صدره إشارة الصليب، ثم نظر إلى المال في يده، وزفرة عميقة فيها الخلاص والحرية، ورأى ثروته تحت قميصه، ومضى مسرعاً مهرولاً في قدم ثابتة في اتجاه يعاكس اتجاه تشيلكاش.

والبحر يصخب ويدوي ويسوق، لاكتساح الشاطئ الرمي، جيوشه وكتائبه من الأمواج فتتكسر وتتحطم في أردان من الزبد والرذاذ، والمطر يغسل البحر ويغسل الأرض في إلحاح وإصرار، والرياح تزار وتعصف، والطبيعة كلها ترتل نشيداً رائعاً فيه شكوى وعويل وصراخ وزئير والغيوم تغمر الأمواج والبحر والأرض والسماء.

وأسرع ماء السماء وماء البحر فغسلا البقعة الحمراء التي تشير إلى المكان الذي سقط فيه تشيلكاش، ومسحا مواطع خطواته، وخطوات صاحبه على الرمال.

ولم يحتفظ شيء من الأشياء، في هذا الشاطئ المقفر بذكرى فاجعة خاصة حدثت بين ذينك الرجلين.

افريقي

- 1 -

لقيته في مرفأ أوديسا.. ظلّ يثير اهتمامي ثلاثة أيام كاملات بقامته
الربعة القوية.. ووجهه القوقازي تطوّقه لحيه رشيقة.. أصبح كابوساً
يلاحقني حيثما كنت، فأراه ساعات طوالاً واقفاً على الرصيف، يمسّ
قبضة عصاه مصاً، ويحدق في حزن بسماء المرفأ القذر، بعينين عسليتين.
ويلقاني في اليوم القصير عشر مرات يمشي مشية المتفرج اللامبالي.

من هذا؟ وجرت التجسس عليه، وكأنه أراد أن يسخر بي فأكثر من
ظهوره أمامي، وسرعان ما عرفته من بعيد ببذلة التريكة، وقبعته الرخوة،
ومشيته المترنحة، وبنظراته ذات التعبير الغامض المتراخي.

كان أمراً جَد غريب في هذا المرفأ بين صفير المراكب ودوي القاطرات
وجرجرة السلاسل وضوضاء العمال، بين كل هذه الأصوات الصاخبة الحارة
التي تضغط عليك من كل جانب، وتُنْضِبُ عقلك وتمهّد أعصابك.

الناس جميعاً هنا في هذا الميناء عبيد لهذه الآلات الجبارة تقتضيهم انتباهاً
لا يفتر، وجهداً لا ينقطع، ها هم أولئك يتزاحمون حول المراكب والقاطرات
يملؤنها أو يفرغونها وكلهم متعبون، منهمكون، يركضون ويصرخون في



ضباب من الغبار ويتصيّبون عرقاً.. أما هو فكان في قلب هذا العمل المحموم
يتشرد في هدوء ويثر قلقه القاتل في تعبير غريب من عدم اكتراث كامل..

وأخيراً، وبعد أربعة أيام، في ساعة الغداء، وقعت عليه وقد قررت
أن أعرفه، فجلست قريباً منه، ومعني بطبخة وخبز، وشرعت أكل وأنظر
إليه وأبحث عن أحسن وسيلة تتيح لي أن أتحدث إليه.

كان واقفاً وقد أسند ظهره إلى حزم الشاي، وجال بنظراته القلقة فيما
حوليه، وعبث بأصابعه على عصاه، كأنه يلعب على قصة.

غير سهل على متشرد مثلي، يغطيه ثوب من غبار الفحم ويحمل على
ظهره شارة الخمّالين، أن يتحدث إلى هذا الرجل الطرير. ولكنني،
وبالدهشتي الصاعقة لاحظت أنه يغرز في نظرات تبرق فيها شراة جامحة
شريرة بهيمية، وأدركت أن هذا الرجل الذي أدرسه جائع وأجلت نظرات
سريعة حوله ثم سألته في رفق:

- أتريد أن تأكل؟

وانتفض انتفاضة الخائف، وكثر تكشيرة الشره الجائع فبدت أسنان
طويلة منضدة خُيِّلَ لي أنها مائة سن أو تزيد، وأجال نظرات حذرة فلم يرَ
أحداً يلحظنا، مددت إليه نصف البطيخة وقطعة من الخبز فانتفض عليهما
ثم توارى وراء أكداش البضاعة يرفع رأسه حيناً بعد حين، وقد قذف
بقبعته إلى مؤخرة رأسه فبدت حبهته سمراء بللها العرق، ولمعت على
صفحة وجهه ابتسامة عريضة وغمز بعينه، وهو أثناء ذلك كله لا يفتر
دقيقة واحدة عن التهام الطعام، وأشرت إليه أن انتظرنني ثم رحلت إلى
السوق فاشتريت لحماً حملته إليه وجلست فوق الأكياس لأحجبه عن عيون

الناس، وظلّ يفترس طعابه افتراساً كما يفترس العقاب قطعة من اللحم يخشى أن تُتَرَغ منه، ورأيته وهو يأكل فكرهت منظره وأعرضت عنه بوجهي، وسمعت بعد ذلك صوتاً يقول لي: شكراً... شكراً...

ووضع كفه على كتفي ثم أمسك بيدي فهزها فآلها وكاد يسحقها.

لرتمض دقائق خمس حتى شرع يقص عليّ قصته:

هو أمير كرجي يدعى شاركو ينادز، وابن ملاك كبير من كوتاييس، كان موظفاً في محطة من محطات القوقاز يسكن هو وصديقه في بيت مشترك، وفر هذا الصديق فجأةً يحمل مال الأمير شاركو ومقتنياته. وجعل شاركو يبحث عنه ثم عَلِمَ أنه في باطوم فهرع إليها ولريكد يصل حتى قيل له أنه سافر إلى أوديسا وعند ذلك أخذ جواز سفر صديق له حلاق يدعى (فانوسفانيكس) على الرغم من اختلاف ملامحهما، وسافر إلى أوديسا فشكا إلى الشرطة أمره ووعدوه باللقاء القبض على المجرم وها هو ذا منذ أسبوعين ينتظر، ولا يملك شروئ نكير، ولريأكل منذ أربعة أيام.

أصغيت إلى قصته فبدت لي صادقة، وكانت الشئام تتخللها حيناً بعد حين، وأشفقت عليه، ووثقت به. كان فتى في التاسعة عشرة من عمره، توحى إليك سذاجته أنه أحدث سناً وأقل عمراً وكان يلح في حديثه على ما أبدى من عطف وحذب على زميله الخائن الذي سرق له ذخائره ونفائسه، وكان غضبه عميقاً ولا سيما حين ذكر أن أباه، وهو ذلك الرجل المخيف، سيذبحه ذبحاً إذا لم يجد ما فقده.

وقلت في نفسي: إن هذا الشاب لابد ضائع في هذه المدينة الكبيرة إن لم يحمه أحد، وما كنت جاهلاً بما تتمتع به عشيرة الحفاة العراة من إمكانيات

ضئيلة وتنبأت أن الأمير شاركو لابد مندمج في جيشهم الذي يستحق كل تقدير ولا يلقى أي تقدير.

وخطر لي أن أساعده، ولم أكن أستطيع، وأجري قليل أن أدفع له ثمن تذكرة في القطار إلى باطوم، وهرعت إلى دوائر كثيرة أطلب له منها تذكرة مجانية، وبذلت كل ما أملك من قوة لأيتن ضرورة هذه النجدة ولكني كنت أقابل برفض ليس أقل قوة من حماسي. عرضت عليه عندئذ أن أرافقه إلى رئيس الشرطة ليطلب تذكرة فاضطرب ورفض: لم يدفع أجر الفندق الذي نام فيه، ضرب رجلاً ثم هرب، ولن تهتبه الشرطة على ما تهرب من دفعه، ولا على ما وزع من ضرباته هنا وهناك، ثم أنه فوق ذلك لا يتذكر تماماً هل ضرب رجلاً واحداً أو اثنين أو أربعة.

وتعقد الموقف، فقررت أن أعمل لأجمع له ثمن التذكرة إلى باطوم ولم يكن هذا القرار ويا للأسف قراراً قابلاً للتنفيذ، بل ربما كان أمراً مستحيلاً، فشاركو كان يلتهم طعام رجال ثلاثة لينجو من صيامه الطويل. وفي تلك الآونة اكتسحت الموانئ موجة من المشردين الذين يموتون جوعاً فهبطت الأجور، وكنا نأكل ستين كوبكا من أجرتي البالغة ثمانين.

وكنت قد قررت قبل معرفتي بالأمير أن أسافر إلى شبه جزيرة القرم، وإلا أظل ثاوياً في أوديسا إلى الأبد، فعرضت على الأمير شاركو أن يرافقني إليها سيراً على الأقدام فإذا وجدت هناك من يوصله إلى تفليس تفرقنا وإلا رافقته أنا بنفسني إليها.

ونظر الأمير إلى نعليه الناعمين، وقبعته وسراويله، مسح بيده سترته، وفكر لحظة ثم تنهد لحظات ثم وافق. وهكذا سرنا من أوديسا إلى تفليس.

بلغنا (خرسون) وقد خبرت زميلي خبراً نهائياً: ساذج جاهل لم يتطور قلبه، سعيد إذا شبع، شقي إذا جاع، كان بهيمة غير ذات خبث ولا شر. وحدثني في رحلتنا عن القفقاس، وعن حياة الإقطاعيين الجورجيين، وعن ألعابهم، وعلاقاتهم بالفلاحين، ووجدت في قصصه شيئاً من المتعة وشيئاً من عظمة ولكن شخصية زميلي بدت لي فيها غير ذات نبل. هذه حكاية من حكاياته:

أقام أمير غني حفلة كبرى لأصدقائه وشربوا حتى ثملوا وأكلوا كل ما على المائدة، ثم مضى الأمير بضيوفه إلى مرابط الخيل فأسرجت وانتطأها ضيوف وركب الأمير أجودها ومضى يعدو في السهل وأعجب الضيوف جمال الحصان وقوته وسرعته، ومضى الأمير مرةً أخرى وفجأةً بدا في سهل فلاح يمتطي صهوة حصان أبيض وجارى حصان الأمير فسبقه، جعل الفلاح يضحك في كبرياء، وقطب الأمير المهان حاجبيه ثم شرع يركبهما، وأشار إلى الفلاح أن يقترب فاقرب وما كاد يصل إليه حتى استل سيفه وضرب عنقه، ثم سدّد مسدسه إلى أذن الحصان فقتله ومضى فانياً للحكومة بعمله السامي فحكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة. وأبدى شاركو عطفه على الأمير.

وبذلت كل ما استطيع لأبين له أن هذا المخلوق لا يستحق العطف،
فكان يجيبني كل مرة عاتباً لائماً.

- هنالك قليل من الأمراء وكثير من الفلاحين، ولا يجوز أن يُحكَمَ
على أمير من أجل فلاح، ومن هو الفلاح؟ وهو ما ترى - وأشار شاركو إلى
كومة من التراب - أما الأمير فنجم من نجوم السماء.

وتجادلنا فغضب، وكثر في غضبه عن أنياب ذئب وبدا على وجهه
تعبير حاد دقيق ثم صرخ:

- اخرس يا مكسيم! فأنت لا تعرف حياة الناس في القفقاس.

وبذلت كل مالي من حجج وبراهين فلم انتصر على سذاجته. وكان كل
ما يبدو واضحاً جلياً عندي يبدو مضحكاً سخيفاً عنده. وظل عقله في حرز
حريز من هجوم منطقي. وعندما طرحته أرضاً بعد كثير من الجهد والعناء
وأثبت له إثباتاً رائعاً ما في أفكاره من سمو وحق، ولم يستسلم بل قال:

أذهب لك القفقاس وعش هناك وستفهم عند ذلك أن ما قلت هو الحق،
وأن الناس يقومون جميعاً بهذا العمل لأنه هو الحق، ويعتقدون أنه هو الحق
وكيف تريد مني أن أطمئن إليك وأنت وحدك الذي تدعي «أن هذا باطل»؟

وسكت، فلم أتكلم، لقد أيقنت أن معارضة هذا الرجل الذي يعتقد
أن حياتنا الحاضرة قائمة على مبدأ الحق والعدل، بالكلام أمر لا يجدي ولا
يفيد، وأن معارضته يجب أن تكون بحقائق الحياة ووقائعها، وظن أن
صمتي استسلام وقبول فزها وبطر وتكبر بهذا النصر، ودفعه اطمئنانه إلى
معرفته المطلقة للحياة وصمتي المقصود إلى الاغراق في قصصه حياة
الملاكين في القفقاس وما فيها من عظمة فاجعة، وبطش وشدوذ، وأثارت

هذه الحكايات اهتمامي وفضولي وشعرت بالثورة على ما في هؤلاء الناس من وحشية واحترام عبدي للمال والقوة، وفقد تام لقواعد الخلق الإنساني. وسألت شاركو مرة: هل يعرف شريعة المسيح فأجاب وهو يهز كتفيه: - وكيف لا؟

وعندما أخبرته تبين لي أن عمله بالدين يُلَخَّصُ فيما يلي: «هناك واحد يدعى المسيح ثار على الشريعة اليهودية، ولذلك صلبه اليهود، ولكنه لم يمت على الصليب، لأنه إله، بل صعد إلى السماء وأنزل للناس شرائع أخرى...».

وسألته عن هذه الشرائع فنظر إليّ في دهشة وسخرية وقال: - أأنت مسيحياً؟ وأنا مسيحي. والعالم كله مسيحي. فلماذا تسألني ما دمت ترى بأف عينيكَ كيف يعيش الناس... هذه هي المسيحية. وغضب وحاولت أن أقصّ عليه حياة المسيح، فاهتم بادئ بدء بعض اهتمام، ثم فقد اهتمامه ثم جعل يتثائب. وعلمت أن لا سبيل إلى التأثير في قلبه فحاولت أن أنير عقله مرة أخرى وبينت له ما في الرحمة والعلم والعدل من خير فقال في غير اكتراث: - القويّ يسنّ الشرائع، فلا تعلمه إياها، وهو قادر على الاهتمام إلى طريقه حتى إذا كان أعمى.

ميزة شاركو كانت في إخلاصه لمبادئه فاحترمه على الرغم من طيشه وقسوته، وكنت أحس حين بنار من الكره تشتعل في صدري لتحرقه، ومع ذلك فلم أقطع جبل الأمل في بلوغ نقطة مشتركة نتلاقى عندها ونتفاهم.

وولجت أبواباً من الحديث أكثر سهولة ويسراً وتقرّبت إليه وعرف ما أبذل من جهد فلم يفهم إلا أنني اعترفت بتفوقه ومقدرته فزادت لهجته قحة وتهجماً، وكم كان عسيراً عليّ أن أجد أدلتي وبراهيني تتساقط كالرماد في وجه هذا الحائط من الصوّان الذي أقامته نظرة هذا الرجل إلى الحياة. واجتزنا مدينة (بيريكوب) واقترنا من جبال القرم ورأيناها في الأفق زرقاء كأنها عصابات من غيوم ناعمة وأعجبت بها من بعيد وحلمت بشواطئ القرم.

وكان الأمير يغني أغانيه الكرجية متجهماً، وأنفقنا كل ما نملك من مال ولم نستطع تعويضه وأسرعنا نحو (تيودوسي) التي بدأت فيها أعمال بناء مرفأ حديث، وأكد لي الأمير أنه هو نفسه سيعمل لندفع أجرة السفر بحراً إلى باطوم، وفي باطوم أصدقاء له كثيرون وما أسهل أن يجدي عملاً حسناً حارساً أو حاجباً. وريت على كفتي كأنها هو حام من حماتي وقال وهو يدير لسانه:

- سأضمن لك مكاناً طيباً وحياةً رغيدةً، تسي تسي، وستشرب من الخمر ما طاب لك أن تشرب، وستأكل من الخراف ما استطعت أن تأكل. وسأزوّجك امرأة كرجية سميّنة، تسي تسي. وستطبخ لك مأكلاً شهية وستلد لك أولاداً كثيراً تسي تسي.

عجبت بادئ ذي بدء من هذه الـ «تسي تسي» ثم جعلت تشير في نفسي بعض الاشمئزاز والكراهة، ثم جعلت تشير بي غضباً شديداً أسود، فاسم الفعل هذا يستعمل في روسيا لدعوة الخنازير، أما في القفقاس فهو يعبر عن الإعجاب والأسف والفرح والألم.

- 3 -

وأخيراً هنا نحن أولئك في القرم. مررنا بسمفير ويول، لكن يالطا. لقد
القاني جمال هذا الركن الفتان من الأرض، تحيط به الأمواج من كل جانب
في ذهول صامت آخرس. أما الأمير فكان ينتهد ويتذمر ويتطلع حواليه
غاضباً باحثاً عما يملأ معدته من فراغ في الحشائش والأشجار المجهولة، فلا
تكفيه ولا تسدُّ رمقه فيقول في جفاء:

- وإذا هذ الجوع جسدي وأقعدني أستطيع السير في طريقي. قل

لي؟

ولن نستطع تدبير عمل، ولن نكن نملك شروئ نقيز، وعجزنا عن
شراء الخبز وجعلنا من أثمار البرية وآمال القلوب غذائنا الوحيد.

وبدا الأمير ينعي عليّ كسلي وخمولي، وجعلت لا أطيقه وكان يشيرني
بما يقصّه عليّ من شراهة وجشع: أكل يوماً حملاً صغيراً وشرب ثلاث
زجاجات من الخمر، واحتسى بعد ساعتين ثلاثة صحون وأكل قدراً من
خروف بارز، وقطعة كبيرة من اللحم، ولم يدخل في حسابه عدداً كبيراً من
أطباق القفقاس الملونة، ولا ما كان هناك من شراب ومدمام. وظل أياماً
كاملةً يحدثني عن معلوماته في طهي الطعام وعما يحب من ألوانه، وهو
يلعب بلسانه، ويسيل لعابه، وتلمع عيناه ويصرف بأسنانه، ثم يبلع ريقه

الذي يبلل شفتي هذا الخطيب المصقع، فأشعر عند ذلك بكره شديد لا أكاد أستطيع إخفاءه.

واستأجرتني بستاني بالقرب من يالطا لتقليم الأشجار وأعطاني سلفاً أجرتي فاشتريت بها كلها لحماً وخبزاً، وجلسنا للطعام ولكن البستاني استدعاني فتركت الطعام في حراسة شاركو الذي رفض العمل بحجة أنه مصاب بصدا، وذهبت لأشتغل وعدت بعد ساعة فإذا بي أتيت أن شاركو لم يكن كاذباً فيما زعم من شراهة: لم تبق كسرة من خبز إلا التهمها، ولا فلة من لحم إلا ازدردتها، ولم يكن ليصنع هذا الصنيع صديق طيب شريف، ومع ذلك فلم ألمه ولم أعتب عليه وأثبتت لي الحوادث اللاحقة أنني كنت في ذلك على ضلال مبين.

ورأى شاركو صمتي فاستثمره، وجرت الأمور منذ اليوم مجرى مخالفاً لكل حق، أما أنا فأشتغل، وأما هو فيستريح ويأكل وينام ويهزأ بي.

لم أكن تلميذاً من تلامذة تولستوي، ورأيت أمراً حقيراً شائناً أن أجد هذا العملاق القوي يتمدد في بقعة ذات ظل محدود وماء مسكوب وينظر إليّ نظرة جائعة شرهة وقد جئت إليه منهوك القوى يهدني العمل والتعب. ولكن الذي بدا لي أكثر حقارةً وأشد انحطاطاً هو أن أرى أنه يهزأ بي ويسخر مني لأنني أعمل وأشتغل، بينما هو يستجدي ويشحذ، ولأنني في نظره لست إلا حطبة لا تصلح للوقود. وأظهر لي حين بدأ في التسول شيئاً من تطهر وتعفف، ولكنه مالبت أن حدق الصنعة واتخذ لها أسبابها وعرف أصولها، فإذا اقتربنا من قرية تربية اعتمد على عصاه وجرّ ساقيه جرّاً،

و ادعى أنه جريح مسكين لأن التتر لا يتصدقون على شاب قوي، وأنكرت عليه عمله هذا إنكاراً، وأجهدت نفسي لأبين ما فيه من دناءة وقذارة فكان يضحك ويحييني في بساطة:

- أنا لا أعرف العمل!

وتصدق عليه الناس صدقات تافهات وفي خلال ذلك أصبْتُ بمرض وبدت لي الرحلة أكثر مشقة وادعى إلى الجهد يومياً بعد يوم ورأيت علاقتي بشاركو علاقة قاسية لا تُطاق وجعل يعنف بي في طلب عنايتي به وحرصني عليه.

- ألسنت أنت دليلى؟ إذن فقدني ودلني. محال عليّ أن أقطع هذه المسافات البعيدة الشاسعة ولم أعود مثلها ولربما قتلتني.

أيسرك أن تؤلمني؟ أتريد أن أموت؟ وماذا يحدث إذا مت؟ ستبكي أمي وسيبكي أبي وستسيل أنهار من الدموع...

وأصغيت إليه وقد تدرعت بالصبر وتغلغلت في رأسي فكرة غريبة رويداً رويداً هي التي وهبت لي القدرة على احتمال كل هذا. كنت أجلس أحياناً إلى جانبه وهو نائم وأتأمل في سكون وجهه الهادئ وأقول ثم أقول كأنني أدركت حدساً جديداً: (يا رفيقي.. يا رفيقي..)

لعل شاركو حين يلحّ في طلب معونتي وعنايتي في مثل هذه السيطرة المطلقة إنما يطلب في بساطة حق الصديق على الصديق. تلك هي الفكرة الغامضة التي نمت في نفسي وترعرت. كانت طلباته تنم على قوة جعلتني له عبداً مطيعاً. كنت أدرسه دراسةً دقيقةً واترقب كل ما في وجهه من خلجات وأحاول أن أعرف الحدّ الذي سيقف عنده في بسط نفوذه على

رجل غريب أما هو فكان هادئاً جَمَّ الهدوء يغني وينام ويهزأ بي ما طاب له
أن يهزأ وكنا نفرق يوماً أو يومين فيمضي كل منا في طريق ثم نلتقي فأعطيه
مؤنثته وزاده من الخبز والمال إذا كان في يدي مال ثم أدله على المكان الذي
يجب أن نلتقي فيه فإذا التقينا تحول القلق الغاضب عند فراقنا إلى فرح
منتصر فيقول لي وهو يتفجر ضاحكاً:

- حسبت أنك ستمضي وحدك وتتركني هنا هـ.. هـ.. هـ.. هـ..
وأعطيه ما يأكل وأحدثه عن القرية الجميلة التي أزورها. وأنشدته
الآبيات التي وصف بها بوشكين قرية باكتشياري فكأنني نفخت في رماد
بارد.

- آه.. شعر.. كلا يا صاحبي لو كانت أغنية لفهمت أما الشعر
فلا...

عرفت رجلاً كرجيا يدعى فاتو كيجيافا يعرف كيف يغني ويا لغنائهِ
ما أحلاه.. آه.. آه.. إذا غنَى خُيِّلَ إليك أن خنجرأ يدور في حنجرته...
ولقد حز حنجرة صاحب فندق فُتِّيَ إلى سيبيريا. كنت كلما عدت إليه
زدت في نظره انحطاطاً وتدهوراً، والغريب أنه لم يكتف عني حقيقة شعوره.
لم تكن أعمالنا ناجحة ولا مزدهرة، وما كنت أصل إلى جمع روبل
واحد أو روبل ونصف خلال أسبوع كامل إلا بشق النفس، وهو مبلغ
قليل على اثنين أما الصدقات التي كان شاركو يجمعها فلم تجدنا قط، ذلك
أن له معدة أو بالوعة تبلع كل شيء: العنب والبطيخ والسّمك المملّح
والخبز والفاكهة الجافة. وهذه البالوعة تزداد مع الزمن سعة وكبراً ويصبح
ملؤها أشدَّ صعوبة يوماً بعد يوم.

والبحر شاركو علي لمغادرة القرم في أسرع وقت، فقد داهمنا الخريف
والطريق ما تزال بعيدة ووافقتة على رأيه بعد أن درست هذه المنطقة فسرنا
إلى (تيودوسي) آملين جمع مال لرنجمعه فعدنا إلى أكل أثمار البساتين وآمال
المستقبل.

ما أشد مضاضة هذا المستقبل. إن انتظار الإنسان له انتظاراً طويلاً
يُفقدُه جماله عندما يصل إليه ويحققه.

ووقفنا على بعد 20 ميلاً من (ابوشتا) لنقضي ليلتنا تلك، وحملت
شاركو على السير متبعاً الشاطئ الرمي، وكان هذا الطريق جديراً بإطالة
طريقنا. ولكنني كنت حريصاً على تنسم هواء البحر، وأشعلنا ناراً تمّدنا
حولها، كانت الليلة رائقة، والبحر الأخضر ينكسر على الصخور من
تحتنا، وساد فوق رؤوسنا صمت السماء الزرقاء، وتمت حوالينا
الأقصاب والأشجار المعطرة في هودة ورفق، وطلع القمر وألقت
أوراق «الشنار» المثلمة ظلالها على الأحجار وهنالك عصفور يلقي
بأعلى صوت أغنية مرتلة مؤثرة تضيق أحيانها القضية في الفضاء على
أصوات الأمواج الهادئة المهددة، فإذا صمت الطير سمعت نامة حادة
ترسلها حشرة. والنار تشتعل شعلة فرحة كأنها باقة كبيرة من الأزهار
فيها الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء وتلقي حولنا ظلالاً راقصة
خفيفة كأنها توائم بتموجاتها ما يلقيه القمر من ظلال، وتنوعت ألوان
الهمسات والأصوات في الليل، ومد البحر سعته الصحراوية إلى الأفق
البعيد، والسماء صافية ليس فيها ضباب ولا غيم، وأحسست أني أجلس
على تخوم الأرض وأتأمل اللانهاية... وسكب جمال الليل الصافي غمرته

في نفسي، وفنيت في انسجام كامل من الألوان والأنغام والطيوب وأفعم
روحي إدراك غامض إلهي، وازداد فرحي بالحياة حتى خُيِّلَ لِيَّ أن قلبي
كفَّ عن الخفقان.

وفجأة انفجر شاركو ضاحكاً:

- هه.. هه.. هه.. ما أشدَّ غباوة هذا الرأس. لكأنه رأس خروف

هه.. هه.. هه..

وانتفضتُ كأني لمست صاعقة انقضت على رأسي، بل لقد كانت
انتفاضتي أشدَّ عنفاً وهولاً. وقد يكون هذا الموقف مضحكاً ولكنه كذلك
مخجل. كان شاركو يضحك ويضحك حتى بكى ضحكاً. وكدت أنا
أبكي. ولكن لأمر آخر. وشعرت أن في حلقي صخرة واقفة لا تتحرك ولا
تريم، وأنا لا أستطيع أن أتكلّم وأكتفي بالنظر إليه نظرةً جنونيةً زادت في
ضحكته وهاجت من قهقهته، فتدحرج على الأرض ممكساً بطنه بجاذر أن
ينفجر ولم أستطع أن استيقظ من كابوس هذه الإهانة، هذه الإهانة المخيفة
التي أودّ أن يفهمها بعض قرائي، لأنهم ذاقوا مثلها من قبل، ويدوقونها
الآن من جديد حين أتحدث عنها.

وزعقت غاضباً هه.. هه..

فخاف وارتجف ولكنه لم يتهالك نفسه فقد استبدّ به جنون الضحك
فنفخ خديه وأدار عينيه وعاد يقهقه، وعندئذٍ قمت وسرت.

مشيت زمناً طويلاً لا أفكر ولا أعي، أتجمع سمّ الوحدة والإهانة.
كنت منذ قليل أضم جسد الطبيعة في أحضاني وأسرّ في أذنيه لحن الهوى
والحب، هذا الحب الذي يحسّ به كل إنسان إذا كان شاعراً.. ولو قليلاً..

ولكن ها هي ذي الطبيعة متمثلة في شخص شاركو تنفجر هازقة بعاطفتي الجياشة وحيي السامي. وهممت أن أوغل في اتهامي وحقدي على الطبيعة وعلى شاركو وعلى نظام الكون كله لو لم أسمع من ورائي وقع أقدام سريعة.

- لا تغضب. لم أعرف أنك تصلي، فأنا ل أصل أبداً.. ورنّت في صوته نبرة طفل مذنب مرتبك، وكان عسيراً عليّ، على الرغم من هيجاني وانفعالي إلا أدرك ما يغمر وجهه الحيي من قلق واضطراب.
- أعاهدك عهداً قاطعاً ألا أزعجك أبداً.

وأشار برأسه إشارة سلبية وقال: - أرى أنك طيب.. تشتغل ولا تطلب مني أن أشتغل... فسألت نفسي: وعلام ذلك؟ لقد فكّرت حقاً أنك حيوان كالخروف مثلاً.

هذا كل ما لديه من عزاء واعتذار يفرغه. وطبيعي أن أعفو عنه بعد هذا العزاء وذلك الإعتذار عن ذنوبه الماضية بل وعن ذنوبه القادِمات.

ومضت نصف ساعة فنام نوماً عميقاً إلى جانبي وظللت أنظر إليه: إن أقوى الرجال يظهر حين ينام ضعيفاً مستضعفاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولذلك فقد اشفقت على شاركو النائم منفرجة شفتاه الغليظتان، مرتفعاً حاجباه في خجل طفل ودهشة رضيع، وهذا تنفّسه وانتظم وتمتم كلمات كرجية وابتهاالات حارة... وهيمن على الوجود من حولنا سكون شامل في أحشائه سر مكتوم: سكون مطلق.. هدوء رهيب.. صمت كامل.. هذا الذي لو طال لأصاب بالجنون الإنسان.

أما الأمواج فلا تكاد تصل تتممها إلينا، ونحن في شعب تجنحه
أسيرة شائكة كأنها شدة غول متحجر.
وتأملت شاركونا ثم وقلت:
- هذا هو رفيقي.. أستطيع أن أتركه وأمضي.. ولكني لا أستطيع أن
أفترق منه.. هو رفيق حياتي.. رفيقي لك قربي..

خبيت (تيودوس) آمالنا، فقد وجدنا فيها عند وصولنا إليها زهاء أربعمئة متشرد كلهم يطلبون عملاً مثلنا، وكلهم يضطرون إلى القناعة بالنظر إلى بناء الرصيف، كأن فيهم أتراك ويونان وقفقاسيون وجماعات من سمولنسك وبولتافا، ومتشردون آخرون. وكانت المدينة كلها غاصّة بأفواج من الرحل وبأسراب من الناس المنهوكين، وبأكوام من الموتى جوعاً وسعياً، ومكتظة بالحفاة من سكان بحر آزوف وشواطئ القرم يعجون فيها عجيجاً كأنهم الذباب.

ورأوا أنا من الموتى جوعاً، فحاولوا أن ينالوا منا أقصى ما يستطيعون من فائدة، فسلبوا معطف شاركو، وكنت قد اشتريته له، وقطعوا شراك كيبي ولكننا بعد جدل طويل استعدنا هذه التحف كلها، وتبيّن لهؤلاء الحفاة أن بيننا وبينهم اشتراكاً في التفكير ووحدة في المشاعر. والحق أن المتشردين أشرف جداً، أشرف في مجتمعهم الخاص، وأشرار جد أشرار في دولتهم.

وعندما أقتنعنا أن ليس في هذه المدينة عمل نقوم به وأن بناء المرفأ يستطيعون الإستغناء عن جهودنا في إقامة السدود شعرنا بالإهانة تلحقنا وسافرنا إلى (كرش).

ووفى صديقي بوعده فلم يهزأ بي أبداً، ولكنه استمر في شكواه من الجوع.

وظل يخيفني وهو يعدّدي ما يريد ابتلاعه من المأكولات وأكثر من ذلك أنه كان إذا رأى أحداً يأكل صكّ أسنانه كأنه ذئب ولريكتف بذلك بل جعل يفكر في النساء، وابتدأ بزفرات يصعدها أسى وحسرة، ثم ازداد عدد هذه الزفرات ورافقتها ابتسامات شرقية حارة، ثم جعل لا يعرّ بامرأة مهما كان عمرها ومظهرها إلا غمرني بآراء عاهرة مفعمة بفلسفة عملية تصل بعضو من أعضاء جسده، وكان فارساً في قضايا النساء عارفاً لها معرفة عميقة، ناظراً إليها نظرة معينة طالما أثارني فبصقت اشمئزازاً ونفوراً. وحاولت ذات يوم أن أيتن له أن المرأة إنسانة مثلي ومثله وأنها يجب أن نعتبرها ندّاً لنا في كل ما لها بنا من علاقات وأمور. ورأيت بعد حين أن كلامي هذا لم يهن كرامته فحسب بل أنه كان احتقاراً له كاد يخرج به إلى الغضب، وصمّمت ألا أرهقه بملاحظاتى حتى ذلك اليوم الذي سيكون فيه صاحبي شاركو ممتلئاً غير جائع.

سرنا إلى كرش، وقد تركنا الشاطئ وأوغلنا في السهل وما في جرابنا غير قرص واحد من الشعير اشتريناه بآخر درهم من دراهمنا، وكان من عقبي ذلك أننا لم نجد عملاً لنا في كرش بل لم نكن قادرين على العمل ولا على الوقوف على أقدامنا إذا وجدناه.

ولم يبتج تسول شاركو في القرى شيئاً، فحيثما سرنا كنا نسمع هذا الجواب الوحيد المؤلم: (عندنا أكوام من أمثالكم). وكان ذلك حقاً، فتلك السنة المخيفة شهدت عدداً لا يحصى من الناس يسعون وراء كسرة من

الحبىز: كانوا يسيرون على أقدامهم عصابات تتألف من ثلاثة أشخاص إلى عشرين شخصاً، وأكثر من عشرين كانوا يسيرون وهم يحملون أطفالهم حملاً أو يجرونهم جرّاً، والأطفال صفر الوجوه، ذبل الشفاه، خمس البطون يُحِيلُ إليك أن هذا السائل الذي يجري تحت جلودهم الزرق ليس ما يسميه الناس دماً أحمر وإنما هو سائل متعفن متفسخ، وإن عظامهم أعشاب يابسة تبرز من وراء جلودهم المتقلّصة التي تشعب فيها الدوالي فيؤذي منظرها من يراها حتى أنه ليشعر أن في قلبه حزناً عميقاً غخيفاً يخنقه فهو لا يهدأ ولا يستريح.

وهؤلاء الأطفال العراة الذين أنكم الطريق لم تبق فيهم قوة تتيح لهم أن يبكوا أو يصرخوا. كانوا يجيلون حواليلهم أنظاراً انطفأت فيها الحياة. وكان هذه النظرات في عيون الأطفال تسأل آباءهم هذا السؤال:

- بأي حق جتّم بنا إلى هذا العالم؟

ولربّما مرّت حيناً بعد حين زحافة يجرّها حصان هزيل تقوده امرأة عجوز كأنها هيكل عظمي تتناثر حولها رؤوس الأطفال وهم يتطلّعون في حزن وأسى إلى حقول الناس وبساتين الناس. والحصان الأعرج يجرّ نفسه جرّاً ويجني رأسه وكأنه هو الذي يستدر الرحمة ويستجدي الشفقة. ويمشي الكبار من النساء والرجال حول الزحافة ووراءها. ورؤوسهم مطرقة، وأذرعهم متدلّية كأنها حبال، وعيونهم مظلمة لم تستطع الحمى نفسها أن توقد فيها بارقة، فظلت صفحة مكتوبة بالمر قاتل لا يوصف. ومشت القوافل مشياً وثيداً صامتاً في أراضى الناس، فكان هؤلاء البؤساء الذين ما زالوا أحياء، والذين اجتثهم الجوع من الأرض، وفصمهم الأمر

عن الحياة، كأنهم يخشون أن يعكروا على الأحياء الأغنياء، الذين هرعوا إليهم متلججين، صفو هدوئهم وراحة بالهم.

كنا نلتقي بهذه القوافل من الجنائز التي ليس فيها موتى، فيسألنا سائلها في رفق وحياء:

- يا صديقي! هل القرية بعيدة؟

فإذا أجابناه انتزع جوابنا آهة من قلبه ثم نظر إلينا عابرين.

وكم كره صاحبي منظر هؤلاء الناس لأمر واحد هو أنهم يزاحمون في التسول ويفسدون عليه خططه ومشروعاته. ولم يكن ليستطيع وقد احتفظ ببقايا حيويته وعضويته السابقة، على الرغم من وعث الطريق وعنف السير وقلة الغذاء، أن يصطنع هذا المظهر البائس الحزين الذي يلبسه هؤلاء البؤساء لباساً حقيقياً، والذي يحق لهم أن يفتخروا به كأنها هو إتقان للمهنة بعد طول المران وكان إذا رأهم وقد أطلعهم الأفق البعيد يصرخ غاضباً.

- جاؤوا.. تفه.. تفه.. ماذا يفعلون هنا؟ هل ضاقت بهم روسيا على رحبها. أنا لا أفهم. إن الشعب الروسي أحمق.

وشرحت له العوامل التي تدفع هذا الشعب إلى الهجرة في طلب القوت ولكنه هز رأسه في شك وريبة وقال:

- أنا لا أفهم. كيف يمكن أن يكون هذا الأمر؟ ليس الشعب الكرجي غيباً إلى هذا الحد.

وأخيراً وصلنا كرش، جياًعاً أمواتاً من الجوع. وصلناها في ساعة متأخرة من الليل وكان علينا أن نقضي ليلتنا تحت الجسر الخشبي في الميناء،

متخبئين متسترين فنحن لا نجهل أن المتشردين الذين سببوا زيادة كبيرة في سكان كرش، قد طردوا طرداً من المدينة، وخشينا أن تُساقَ إلَيَّ المخفر، ثم أن الجواز الذي يحمله شاركو ليس له، ومن الممكن أن يُعَقَّدَ هذا الأمر مغامرتنا تعقيداً غير قليل.

وتكرّمت علينا أمواج البحر فشرت علينا رذاذها طوال الليل، وغادرنا عند الفجر ملجأنا تحت الجسر، وقد تبلّلت ثيابنا بالماء وتفرقت أجسادنا من البرد، وقضينا يومنا كلّهُ متشردين على الشاطئ ولم نكسب غير عشرة كويكات أعطينها زوجة خزري حملت له حاجاتها من السوق إلَيَّ البيت.

بقي علينا أن نجتاز مضيق (كرش) إلَيَّ (تاماني) ولم نجد نوتيا يستأجرنا مجدفين لقاء نقلنا فقط إليها. وذهبت توسلاقي ومساعي إدراج الرياح فإن زملاءنا المتشردين قاموا بمغامرات كثيرة جريئة جعلت الناس يخشوننا ويتقوننا ويضعوننا في زمرة الحفاة وكانوا في ذلك على صواب. وأقبل المساء، فقررت وأنا ناظم على نفسي وحظي، ناظم على العالم كلّهُ، أن أقوم بمغامرة طائشة.. نفذتها فعلاً عندما وُلِدَ الليل.

هبط الليل فتسللت أنا وشاركو إلى منطقة الجمرك، ووجدنا هنالك ثلاثة مراكب تربطها سلاسل حديدية بحائط الرصيف الحجري، الليل أسود حالك السواد، والرياح تعصف وتزجر والقوارب تصطدم، والسلاسل تصلصل، وكان سهلاً عليّ أن أفك حلقة سلسلة من سلاسل هذه المراكب بتحريكها وفوق رأسنا على بعد خمسة أمتار كان الحارس الجمركي ينتزه ويمرّس ويصفر، وكان إذا اقترب هدأت وقطعت عملي فإذا ابتعد استأنفته، والحق أن هذه الحيلة، كانت زائدة، فليس في العالم شخص يستطيع أن يفترض وجود إنسان يتجرب على القيام بمثل هذه المغامرة، في مثل هذا المكان، وفي مثل هذا الجو: فيهبط الماء حتى يغمر عنقه، ويتعرض في كل لحظة لموجة من الموجات تكتسحه وتسوقه، ثم أن السلاسل كانت تجلجل وتتصادم في غير هوادة ولا انقطاع، ولم أكن أنا شيئاً في وسط هذه الجلجلة وذلك الدوي.

وتمدّد شاركو في أعماق القارب ودعم كلمات تضيع في جلبه الأمواج، وأخيراً انفصلت الحلقة... وجاءت موجة فحملت الزورق وألقت به على بعد أمتار من الرصيف وكنت قد أمسكت السلسلة فسبحت إلى الزورق ثم صعدت إليه واقفنا لוחتي الجلوس فيه وأثبتناهما في موقع استاد المجدافين... وأبحرنا...

الغيوم تعدو عدواً، والأمواج تقفز قفزاً وتسلم شاركو سكان القارب وكان يختفي هو ومؤخرة القارب تحت الأمواج حيناً بعد حين ثم يظهر فيعلوا علواً كبيراً وكأنه يريد أن ينقض عليه ونصحته أن يربط فخذيه بطرفي المركب، وكان عليه أن يفعل هذا دون انتظار لأوامري، وأن يكفّ عن صراخه إذا كان حريصاً على ألا يسمعه الحارس، فأطاع وسكت، ولم أتبين معالم وجهه ولكنه بدا لي دائرة بيضاء، ولم نستطع تبادل صنيعة فكننت أشير له بها يجب أن يفعل فينفذ طلباتي بيدي بحار صنّاع ماهر. ولم تفدنا اللوحتان اللتان جعلناهما مجدافين إلا في خلع كتفي ومفاصلي.

كانت الريح تهبّ من ورائنا فتسوقنا سوقاً، ولم أبال باتجاه المركب، ولكنني حرصت على ألا نخرج من المضيق، وكان هذا الأمر سهلاً عليّ بمراقبة أنوار كرتش التي كانت واضحة لنا. وزارتنا الأمواج فوق ظهر المركب وتلاقت في غضب وحقد، وكنا كلما أوغلنا في عرض البحر زادت حركة الأمواج قسوة وعنفاً، فزارت زئيراً مخيفاً يشلّ كل تفكير.

واندفع المركب اندفاعاً يزدادا في اطراد، وأصبح عسيراً عليّ أن أحافظ على الإتجاه الضروري، فنحن تارة نغوص في بطون الأمواج، وتارة نصعد إلى ذرى الجبال السائلة.

واحللك الظلام وكشف، وانخفضت قِمَم الأمواج قليلاً، وتوارت الأنوار على البر وراء الظلمات، وشعرت بالخوف، وخُيِّلَ إليّ أن لا نهاية لهذا الامتداد بين الماء الغاضب، ولم أرَ إلا هذه الأمواج تأتي

زاحفة من جلاباب الظلام فتتكسر على القارب، واقتلع الموج لوحاً من اللوحين، وقذفت بالآخر إلى أعماق القارب، وأمسكت بكلتا يدي جانبيه، وسمعت شاركو يزعق زعقات قويّة وشعرت أني أستحق الشفقة والرثاء، وأنّ في هذه الظلمات إنسان وحيد لا حول له ولا قوة قُذِفَ به إلى بحر تحرر من كل قيوده، وأصمّ أذني برعوده وقلبت حولي نظرات مفعمة بالحزن والخوف، وبدأ لي منظر البحر رتيباً مروّعاً: أمواج متعممة بعمائم من الزبد، تتناثر على جانبي القارب رذاذاً دقيقاً مالحاً، وغيوم ثقيلة متمزقة كأنها أمواج أخرى.

وبقي في خاطري انطباع واحد: هذه الفوضى التي تحيط بي يمكن أن تكون أكثر عنفاً ممّا هي عليه الآن ألف مرّة، وأشدّ هولاً ممّا هي عليه الآن ألف مرّة، ولعلي كنت ناقماً عليها ضيقاً بها لأنها تلملم نفسها وتكفكف من قوتها، وتأبى أن تنطلق إلى أقصى مداها، وبدأ لي الموت أمراً حتماً لا مناص منه، ومع ذلك فقد رأيت من الضروري ألا أقبل هذا القانون الذي لا يمكن خرقه، والذي يتساوى عنده كل شيء، والذي يقضي على كل شيء، ولو لم يكن كذلك لكان أكثر قسوة وأشدّ ألماً وشعرت أني لو خُيرْتُ بين أن أموت حرقاً وبين أن أغرق في مستنقع لوجدت النار خيراً مآباً وأكرم عقبي.

وصرخ شاركو: - لنصنع شراعاً.

- وأين الشراع؟ هذا معطفي - هاته ولا تترك الدفة.

وتحرك شاركو قليلاً ثم قال: - خذ.

وزحفت في قعر المركب، واستطعت بعد لأي أن أنزع لوحاً أولجته

في كم المعطف ونصبته كالشراع وأمسكته بين قدمي، وبيننا أنا أهم بأمسك
الكُم الثاني وذيل المعطف حدث أمر لم يكن في الحسبان...

قفزنا قفزة منكراً ثم سقطنا في لجةٍ مسحية... ووجدتني في البحر
ممسكاً بالمعطف بإحدى يدي والحبل باليد الأخرى... والأمواج تجري فوق
رأسي، وفي ملآن بياه مالح مر، بل إن هذا الماء يملأ أذني وأنفي وحلقي...
وتشبّثت بالحبل تشبّث اليائس واستطعت أن أنجو من الماء ثم عدت
فغصت فيه مرةً أخرى وصدّمت رأسي ألواح الزورق، قذفت بالمعطف على
الزورق الذي انقلب ظهراً لبطن وجعلت أتسلقه، واستطعت ذلك بعد
جهود فامتطيت المركب كأني أمتطي صهوة حصان، ورأيت شاركو يقفز
ويغوص في البحر متمسكاً بالحبال المحيطة بالزورق المثبّته في حلقات من
حديد.

وصرخت: - هل أنت حي؟

ورفعته الأمواج وألقت به في المركب فتلقّيته وكنت لا أزال
أمتطي سرج المركب وقداي في حباله كأنها ركاب. ولكن هذا الوضع لم
يكن ثابتاً، فلربما جرفتني أول موجة. وتمسّك بي شاركو وهو يضرب
صدري برأسه، وكان يرتجف كل عضو من أعضائه حتى أني لا أسمع
صكّة أسنانه. كان عليّ أن أقوم بعمل، فحيزوم الزورق مدهون لا
يصلح للمجلوس، وقلت لشاركو أن يهبط إلى الماء وأن يتمسك بحبال
المركب عن يمينه وأمسك بها عن يساره، فأجابني بضربة رأس فوق
صدري.

واستمرّت الأمواج في رقصتها الغاضبة، واستطعنا أن نتماسك بعد

لأي، وكان الجبل ينشر قدمي كأنها هو منشار، ورأينا جبال الماء تُنصبُ
شامخة ثم تنهار وتتوارى في جلبة وجلجلة.

وعدت إلى شاركو فأمرته في حزم وعزم فأجابني بضربات أشد
حزماً وعزماً...

ليس في الوقت متسع نضّيته في هذا الهزل. وأمست بذراعيه
فقصمتها واحداً بعد واحد عن جسدي، وأنزلته إلى الماء وأنا أربط يديه
بالجبال. وعندئذ حدث أشد ما في هذه الليلة المرعبة هولاً ورعباً.

قال شاركو وهو يحملك في وجهي:

- أتريد أن تغرقني؟

كان عملي خيفاً، وكان سؤاله مخيفاً، ولكن لهجة السؤال كانت أشد
هولاً: فيها خضوع ذو حياء وفيها طلب للرحمة في تواضع، وفيها أمل سام
هو أمل إنسان يفقد آخر خيط من خيوط رجائه في النجاة من موت أكيد
خيف. وأشد من هذه اللهجة ومن ذلك السؤال هولاً ورعباً هاتان العينان
الجاحظتان في هذا الوجه المكفهر الأزرق الذي يقطر الماء.

وصرخت به: - تمسك بالجبال جيداً.

وألقيت بنفسي في الماء وتمسكت بالجبال.. هذه قدمي تصطدم
بشيء من الأشياء... وكانت الصدمة أليمة لمدعني أفهم شيئاً...
ولكني سرعان ما ضبطت نفسي ففهمت. وهز أعماقي إحساس عجيب:
كنت ثملاً.. وشعرت أني قوي قوة لم أشعر بها أبداً وصرخت صرخة
هائلة:

- الأرض... الأرض...

قد يشعر الملاحون العظام، حين يكتشفون عوالم جديدة، بحماسة أكثر حدة من حدة حماسي، ولكني لا اعتقد أنهم يصرخون صرخة أقوى من صرختي، وزأر شاركو ثم قذفنا أنفسنا إلى اليم..

وما أسرع ما نهنتها من فرحنا.. الماء ما يزال يغمر صدورنا.. ولا شيء يدل على أرض. نعم إن الأمواج هدأت قليلاً واكتفت بالتدحرج فوق رؤوسنا. لم أترك المركب لحسن الحظ. بل أمسكت به من ناحية وأمسك به شاركو من ناحية أخرى. وتقلعنا هكذا في حذر شديد وفي غير ما تصميم، وقلبنا المركب.

أما شاركو فكان يلعن ويضحك.. وكل شيء ما يزال أمامنا أسود، ومن ورائنا وعن يميننا ما يزال يضطرب، وعن شمالنا كان أقل حدة وعنفاً فمضينا نحو الشمال.

قعر البحر صخري ورملي ولكنه غير منتظم. نضطر في بعض مواضعه إلى السباحة بيد وإمساك المركب بيد، ونمشي في بعض مواضعه فلا يصل الماء إلى ركبتنا، فإذا بلغنا موضعاً عميقاً تأوه شاركو وارتجف، وفجأة لمعت أمام أعيننا الأنوار.. الأمان.. الأمان..

وهدر شاركو هديرًا، ولم أنس أن المركب للجمر فكذرت شاركو به فسكت ثم سمعته بعد لحظات يبكي ويتحب، ولم أستطع تهدئته، بل لم أجد زماناً أعمل فيه على تهدئته.

ونقص الماء ثم نقص.. ها هو ذا دون ركبتنا.. وصل إلى رسغنا.. ثم لا ماء.. ولا بحر..

وجررنا القارب بآخر ما بقي فينا من قوة ورمق.. وتعثرت أقدامنا

بشيء أسود لعلّه جذع شجرة فقفزنا، وتعثرت أقدامنا بأشواك وأشواك
فحطمناها.. إن الأرض تستقبلنا استقبالا ليس فيه احتفال ولا احتفاء ولا
كرم.. ولكن ما كنا لنعبأ بهذا كله.. أننا نركض إلى منزل رأيناه على بعد
فرسخ.. ونُحِيل إلينا أن في بضيضه ابتسامة ترحب بنا وتدعونا.. أما الليل
فبدا حواليه أشد قتاما وظلاما.

نجم من الظلام ثلاثة كلاب ضخمة الأجسام، طويلة الشعر وهجمت علينا أما شاركو الذي ما زال يتحب فقد صرخ صرخة مرعبة وسقط إلى الأرض، وألقيت المعطف الذي يقطر ماؤه في وجه الكلاب وانحنيت إلى الأرض ألتمس حجراً أو عصاً فلم أحد إلا الأشواك تمزق أصابعي وعادت الكلاب فهاجمتنا في عناد فوضعت إصبعي في فمي وصفرت تصفيراً حاداً فتفرقت الكلاب وسمعت وقع خطوات تركض وتقرب.

وما هي إلا لحظات حتى كنا نصطي نارا تتأجج ويحيط بها أربعة رجال يلبسون فروات مقلوبة، ويصفون إليّ وأنا أقصّ عليهم أنباء مغامرتي، وينظرون إلينا نظرات فيها شك وحذر.

أما اثنان منهم فكانا يجلسان على الأرض ويمصّان غليونهما في قوّة، وأما الثالث فكان كهلاً ذا لحية سوداء كثّة، يعتمر بعمامة قوقازية عالية ويجلس على هراوة ذات عرجون وأما رابعهما فشاب أشقر الشعر يساعد شاركو المتحب على خلع ملابسه. وإلى اليمين كل منهم هراوة عظيمة عجراء.

وهناك غير بعيد بدت الأرض مستورة بتف شهب تذكرنا بالثلج إذا جعل يذيه الريح، فإذا أمعنت النظر بدت لك قطعاناً من الغنم

متلاصقة متلاحمة تتجاوز عشرات الألوف تتراكم فوق بعضها وهي نائمة وتؤلف بقعة ملوثة تغطي السهل في ظلام الليل، وينفلت منها حيناً بعد حين ثغاء فيه خوف.

ونشرت المعطف أمام النار اجففه وقصصت في صدق وإخلاص قصة المركب.

وسألني عجوز كل ما فيه بياض ناصع، رغم ما في وجهه من صرامة، وما في نظراته التي لم تفارقني من نفاذا - وأين تركت الزورق؟

وأخبرته عن موضعه فقال:

- يا ميخائيل اذهب وانظر إليه.

وأخذ ميخائيل ذو اللحية السوداء هراوته فوضعها على كتفه، ومضى إلى الشاطئ.

جفت المعطف وأراد شاركو أن يلبسه فوق جسده العاري فقال له الشيخ:

- مهلاً.. مهلاً.. در حول النار حتى تنتظم دورة دمك.. هيا.

ولريفهم شاركو بادئ الأمر، ولكنه ما لبث أن وقف عريان عرياً كاملاً، وجعل يرقص في وحشية ليس لها مثيل: كان يقفز كالرصاص فوق النار، ويدور وينفتل ويضرب الأرض بعقبه، ويزعق زعقات هائلات، ويمرّك يديه حركات مضحكات، الحق أن مشهده هذا يدعو إلى ضحك مميت، واستلقى اثنان من الرعاة على الأرض ضحكاً، وكادت تنشق منهما الحناجر، أما الشيخ فما برح مهيب الطلعة، يحاول أن يتبع رقصة شاركو

بالتصفيق، فلا يستطيع، فيلاحظ الحركات ويهز رأسه ويهز شاربيه ويصرخ في صوت أجش:

- هيه! هيه! عال.. طيب.. عال.

وتقلب شاركو أمام النار كما يتقلب الأفعوان، وغير حركاته وأوضاعه، وقفز على قدم واحدة وفحص برجله الأخرى الأرض، وما زال يرقص حتى غطى العرق جسمه الخفض ولمعت على ضوء النار قطرات حمراء كأنها قطرات من الدم.

وجعل الرجال يصفقون تصفيقاً متجانساً موزوناً، وأما أنا فكنت ما أزال أرتجف من البرد وأتخيل أن رحلتنا هذه ربما تسير المتزمتين من أمثال كوبر وجون فرن: غرق.. ضيافة.. رقصة بربرية.. نار.. كل شيء.. ودب في هذه الأفكار قلق على عاقبة هذه الرواية التاريخية وما ستنتهي إليه من مصير.

وجلس شاركو أخيراً وتلفع بمعطفه، وجعل يأكل وقد لمع في عينيه نور غريب يوحي إليّ بغير رضا، وأعطوني كذلك خبزاً وشحم خنزير. وعاد ميخائيل فجلس ولم يتكلم وسأله الشيخ:

- ماذا رأيت؟

- رأيت زورقاً.

- ألا يجرفه البحر.

- كلا.

وسكتا. وعاد إلى امتحاني. وقال ميخائيل أخيراً وهو لا ينحصر أحد

بسؤاله:

- إذن فهل نقودهما إلى المخفر أو إلى الجمر؟

وقلت: أهذا هو المصير؟

لربيب أحد على سؤال ميخائيل.. وظل شاركو يأكل في هدوء.

وفكر الشيخ ثم قال:

- هذا أو ذلك، كلا الأمرين حسن.

- سرقا مركباً للحكومة.. ويجب أن ينالهما العقاب.

وقلت - أيها الجد..

ولكنه لم يسمع وظل يقول: - السرقة ليست مباحة.. نعم.. وقد

يفعلان أكثر من ذلك إذا لريئلا جزاءهما.

كان الشيخ يتحدث في هدوء يغيظني، وعندما سكث هز الجميع

رؤوسهم صامتين موافقين:

- أرايت.. لقد سرقت فكفر عن عملك، يا ميخائيل.. المركب هل

هو هناك؟

- نعم - حسناً حسناً ألا يجرفه البحر؟ - كلا.

حسناً حسناً.. غداً سيعيده البحارة إلى كرش.. ولن يرفضوا نقل

زورق فارغ؟

حسناً حسناً.. أما أنتم أيها الرفيقين.. يا صاحبي الأسماك.. فلستما أبداً

من الجبناء الرعاعيد.. ولكن ماذا كان مصيركما لو جاوزتما مكانكما نصف

فرسخ..؟ تبلغان عرض البحر.. وماذا يحل بكما إذا بلغتما عرضه؟ قولاً!!

توافيان قعره وترسبان بأسرع تما توافيه فأس من الحديد نعم تغرقان

وهذا كل ما هنالك..

وسكت الشيخ وقد هزت شاريه بسمه ساخرة:

- وعلام لا تحيب يا أزعر..

ومللت ما في حديث العجوز من مواربة.. وشعرت أنه يهزأ بنا على

الرغم من أنني لم أفهم مقاصده فهماً تاماً.

وقلت له متجهماً: ما زلت أسمع - ماذا؟ - لا شيء.

يبدو أنك تستخف بي؟ أليق بك أن تهزأ بمن هو أكبر منك

وسكت، معترفاً في قرارة نفسي بما في عملي من خطأ.. وعاد الشيخ يقول:

- أتريد أن تأكل إذا كنت لم تشبع؟ حسناً لا تأكل؟! ولكن ألا تريد

زاداً للطريق..

وانتفضت فرحاً وسروراً ولكنني عمالكت نفسي فلم أدع فرحي يظهر

على وجهي، وأجبت في هدوء.

- أما الزاد للطريق فأقبله..

- آه آه.. أعطوهما ما يكفي طريقتي من الخبز والشحم، وإذا

وجدتم غير ذلك فليأخذوه.

وسأل ميخائيل - أيسافران؟

وشارك الآخرين ميخائيل سؤاله بنظراتهما. وقال الشيخ:

- وماذا نصنع بهما؟.. أخبرني.

وقال ميخائيل في لهجة ليس فيها رضا: - ولكن لم نعتزم تسليمهما

إلى المخفر أو الجمرع.

وشاركوا ما يزال يتقلب حول النار ويخرج من حين إلى حين رأسه

من تحت معطفه ويتطلع إلينا في فضول وهدوء.

- وماذا يصنعان في المخفر؟ لا شيء!! سيذهبان إليه إذا راق لهما أن يذهبا..

- وكيف تدبّر مسألة المركب؟

- المركب؟ نعم المركب؟ أليس هناك؟

- نعم هناك.. إذا فليبق حيث هو.. سيأخذه إيفاشكو إلى المرفأ ويسلمه للبخارة فينقلونه إلى كرش.. هذا كل ما في الأمر..

ورمقت الشيخ في دقة واهتمام.. ما من شيء يختلج في وجهه الهادئ الذي لوّحته الشمس ولفحته الريح، وترقرقت عليه ظلال الموقد. وقال ميخائيل:

- ألا يؤدي اطلاق سراحهما إلى مشكلة؟

- كلا لن يؤدي إلى مشكلة أبداً ما دام لسانك في فمك غير طويل.. ولعلنا إذا قدمناهما إلى المخفر أزعجنا أنفسنا وأزعجناهما.. وكفانا ما نحمل من أعباء وكفاهما ما قاسيا من عناء.. إذن فليذهبا.. ولكن أين تقصدان؟ وأجبته، وكنت قد أخبرته من قبل: إلى تفليس.

- إنها بعيدة.. ألا ترى أن المخفر قد يؤخرهما ويضيع عليهما وقتها.. ومتى يصلان. أليس خيراً لهما أن يواصلتا سيرهما؟ أيس كذلك يا شباب!! وقال رفاق الشيخ: - افعل ما تشاء.

وخلل لحيته البيضاء بأصابعه ثم قال:

- هيا يا شباب.. سيروا بحراسة الله.. وسنعيد المركب..

وقلت وأنا أخلع قبعتي: - شكراً لك أيها الشيخ.

- شكراً!! وعلام الشكر!!

وقلت وأنا مرتبك: - شكراً يا أخي شكراً.

- وعلامة الشكر؟! يا لها من فكرة؟! أقوله له: سافر في حراسة الله

فيقول لي شكراً.. وهل ظننت أنني سأسلمك؟

- أجل لقد خشيت ذلك.

وقطب الشيخ حاجبيه وقال:

- آه آه: لرأيها الإنسان تريد أن تلقي في الضلالة أخاك الإنسان؟

أليس حرياً بك أن تهديه الصراط المستقيم الذي هدأك الله إليه، ولعلك

ستلقاه يوماً ما. وقد نلتقي يوماً وقد يكون حتماً علينا أن يعين بعضنا بعضاً.

ورفع قلنسوته الجلدية ذات الشعر الطويل يحينا، ورفع رفاقه

قبعاتهم، ودلّونا على الطريق (اناب) ومضي.

وكان شاركوا يضحك لأمر ما..

سألته: - ما الذي يضحكك؟

كنت مفتوناً بالشيخ وبطريقته في فهم الحياة، وكنت سعيداً بهذه النسمة الندية تبشر بالفجر القريب وتتنفس في صدورنا، سعيداً بهذه السماء التي تخلّصت من كل غيم، وهمت أن تلتهب، سعيداً بالشمس وهي تشرق، وبالنهار وهو يولد.

وغمز شاركو جانبي غمزة مأكرة ثم عاد فانفجر ضاحكاً ولم أستطع أن أمنع نفسي من بسمة وأنا أسمع ضحكته المرحّة الصافية. وشعرت، بعد الساعتين أو الساعات الثلاث، التي قضيناها نصطلي نار الرعاية، وبعد ذلك الخبز الطيب والشحم اللذيذ، أن لربيق لنا من آثار تلك المغامرة الرائعة إلا تكسر غير ذي بال في العظام سوف يزيله السير عن قريب.

- وممّ تضحك؟ لأنك سعيد بنجاحك تشعر أنك حي وأنت غير جائع؟

وهزّ شاركو رأسه هزة المنكر، ثم وكزني وكزة طيبة، وكشر عن أنيابه وعاد يضحك. فلما هدأ قال لي:

- ألا تعرف لماذا اضحك؟ إذن فسأخبرك.. أرايت حين قالوا أنهم

سيذهبون بنا إلى المخفر أو إلى الجمر.. أعلمت ما سأفعل بك لو قادونا إليهما، أرتخمن؟ حسناً.. لو أخذونا إلى المخفر لقلت: هذا الرجل حاول إغراقي.. وسأبكي وسيشفقون عليّ فيطلقون سراحى، أما أنت فسيلقونك في السجن أفهمت..

وظننت بادئ بدء أنه يمزح ويبعث بي.. ولكن وأسفاه.. سرعان ما أقنعني أنه كان جاداً كل الجدد، مصتماً كل التصميم، أقنعني قناعة تامة لا تقبل الرد والجدل، قناعة بلغت بي حداً لم أستطع بعده الغضب في وجه هذه الأنايئة الطائشة.. بل لقد شعرت بالحنان والإشفاق على هذا الصاحب وعلى نفسي، وألا فخبرني أية عاطفة يمكن أن تختلج في نفسك، وأنت ترى رجلاً يعلن لك نياته القتالية، في لهجة صادقة وضحكة مرحة؟ بل خبرني أي موقف يمكن أن تقفه منه حين لا يرى هو في نذالته السوداء إلا مزحة لطيفة مضحكة؟

وشرعت أبيت له في حماسة ما في فكرته من لؤم وشناعة، فأجابني في برود مطلق أن ليس يحق لي أن أنظر إليه كما أنظر إلى نفسي، وأن أضع نفسي مكانه أليس هو يحمل جوازاً مزوراً يجعل موقفه حرجاً مهلكاً؟ ولقد أوحى إليّ هذا التصريح أفكاراً مرعبة فقلت له:

- اسمع! هل اعتقدت حقاً أني نويت إغراقك؟

- ظننت ذلك حين رميت بي إلى الماء فلما رأيتك تهبط أنت إليه طار

الظن.. وصرخت:

- الحمد لله.. وشكرًا لك على هذا.

- ليس ما يدعوك إلى شكري.. ولكني أنا الذي أشكر.. كنا معاً

أمام النار نرعد برداً، وكان المعطف لك فلم تأخذه، بل جففته وقدته إليّ، ولم تحتفظ لنفسك بما يترك، ولهذا فأنا أشكرك.. أنا موقن أنك طيب القلب.. وأنا اعترف لك بما لك عليّ من دين إذا بلغنا تفليس. سأذهب بك إلى والدي فأقول له: - «هذا هو الرجل يا أبتاه.. قدم له طعاماً وشراباً، أما أنا فأقذف بي إلى الاصطبل مع الحمير» هكذا سأقول له وستسكن في بيتنا وستتعهد حديقتنا بعنايتك.. وستشرب الخمر ما طاب لك أن تشرب.. وستأكل ما لذلك أن تأكل.. ستعيش عيشة راضية ناعمة: كُل في صحنِي واشرب من كأسِي.

وجعل يسرف ويسرف في حديث مفصل طويل عن الحياة التي سيمهدا لي في تفليس تمهيداً، أما أنا فقد كنت أشعر وهو يتحدث بذلك بالأثر العميق الذي يشعر به الناس الجدد: أَرَأَيْتَ الذين يرغبون في السير إلى أمام، فإذا بهم يحيدون عن الطريق المستقيم، وإذا بهم يتيهون ويضلّون في مهامه الحياة، وإذا بهم يتعثرون في طريقهم بأمثال هذا الأمير، هؤلاء الأفراد الذين هم غرباء عنهم غريبة كاملة، فهم لا يقدرّون على فهم أهدافهم، وهم لا يستطيعون مشاركتهم في آمالهم! ما أشقّ حياة هؤلاء المعتزلة وما أشقاهم: إن الريح تمضي بسفيتهم إلى حيث لا يريدون، إنهم تلك البذور الطيبة التي لا تجد لها تربة صالحة طيبة.

وبدا الصباح وغمر البحر نور ذهبي موزّد، وقال شاركو:
- أنا نعسان.

واسترحنا، وتمدّد في حفرة حفرتها الريح في الرمل على بعد قليل من

الشاطئ، وغطى رأسه وجسمه بمعطفه وغط في نومه رأساً، وجلست إلى جانبه أرقب البحر..

ما يزال البحر يعيش عيشته الواسعة النشيطة: الأمواج كالقطعان تثب إلى الشاطئ ثم تتكسر على الرمل، فيمص ماءها مصاً وينشّ نشيئاً خفيفاً، ثم تعود خائبةً وقد كللها تاج من الزبد والرغوة، فتهرع إلى نجدتها أمواج أخرى وتكرّر جميعاً لتغزو الأرض وتبسط نفوذها على مناطق جديدة منها..

وهناك في أقاصي الأفق البعيد، من قلب البحر الواسع تتجمع أمواج جديدة هائلة.. تتقدم ثم تتقدم من دون هوادة في جيوش متلاحقة يشد بعضها بعضاً، ويحدوها أسل واحد وإرادة واحدة.. لا تتغير.. والشمس تُضيء بأشعتها ذوائبها فتبدو أعراف الأمواج كأنها هي مصبوغة بحمرة الدم. ليس في هذه الأمواج كلّها قطرة واحدة لا تشترك في هذا الجهد، أو يضيع حظها من هذا الجهد. هذا الجهد العنيد في سبيل عمل تفهمه فهماً وتعيه وعياً، وتعلم حق العلم أن هجماتها المستمرة المنتظمة ستقدم إليها عمّا قريب فريستها طيبة سائغة.

فتنتني جراءة الأمواج الأولى التي تثب على الرمل الأخرس وأكبرت تضحياتها، وأعجبت بهذا البحر الذي يلحق بها من ورائها.. هذا البحر الذي تلونه الشمس بكل ما في قوس قزح من ألوان هذا البحر القوي العظيم الذي يشعر بقوّته وعظمته.

وبدت من وراء ذلك الرأس الذي يشقّ البحر شقاً بآخرة كبيرة مشّت في جلال للقاء هذه الأمواج، وداست في كبرياء صفحة البحر

المضطرب به فقلقت الأمواج وتجمعت فهاجمتها في شدة وعنف، وظلمت الباخرة تسير وأوحى إلي جمالها المتناسك ويريق أجزائها المعدنية، أو لعلها كانا يوحيان إلي في غير هذه الظروف بما في الإنسان من كبرياء.. هذا الإنسان الذي يعرف كيف يستخدم عناصر الطبيعة ويخضعها.

ولكن وأسفا! ما هنا يتمدد إلى جانبي إنسان - عنصرا

سرنا قداماً عبر مقاطعة (تيرسك)، وكان شاركو أشعث الشعر يلبس أسماً تدعى ثياب ممزقة تمزيقاً خفيفاً، وكان علاوة على هذا مستجهم الوجه كأنه شيطان مريد، رغم أنه شبع فيما يدري آثر الجوع، فقد كنا نجد في هذه المقاطعة عملاً متى أردنا، أو على الصحيح متى أردت. فقد كان صاحبي غير قادر على بذل أيّ جهد، حاول مرة أن يضرب سوق القمح ويزيل عن الحبّ القش، فلم ينقص من النهار إلا نصفه حتى كفّ عن العمل وبيدها تقطران دماً، وكنا مرة أخرى نقطع جذور الأشجار فوجد وسيلة ما للجرح رقبتة بالوند.

وسرنا على مهل، نعمل يومين ونمشي اليوم الثالث، ذلك أن الأمير لم يحاول أن يعدّل طريقته في الأكل قليلاً ولا كثيراً، وكان شرهه سيئاً في أيّ لركن أستطيع أن أوفر ما يلزم من المال لأشتري له به ما يكسر عريه، ويسد به هذه الثقوب التي تلمها خرق من ألوان مختلفات، وكان قد شرع يرتاد حانات القرى فحاولت إقناعه بهجرها وترك الشراب فلم يصنع إلّا ملامتي.

ونشل من كيسي ذات يوم، خمسة رويالات جمعتها بعد لاي وأخفيها عنه لأشتري له بها ما يصلح أمره، وعاد مساء إلّا المقشاة التي كنت أحمّلها.

فيها سكران ثملاً ترافقه امرأة قوقازية ضخمة كأنها السعلاة، جعلت تحيتي هذه الشتائم.

- صباح الخير يا كافر يا شقي.

وعجبت وسألتها: ولم أنا كافر؟ فأجابتنني في قحّة: - ذلك لأنك تحول بين هذا الفتى وبين النساء! ولم تجعلهنّ حراماً والقانون يجعلهنّ حلالاً. لعنة الله عليك.

ووقف شاركو إلى جانبي يومئذ برأسه مؤمناً موافقاً، كان ثملاً ثملاً خيفاً، فإذا حاول أن يتحرك تحبّط وترنح كأن أعضائه منفصلة عن جسده، وقد تبدلت شفته السفلى، وعينه اللتان خلتا من أيّ تعبير تنفرسان في عناد وبلادة.

وصرخت المرأة: - وماذا تنتظر؟ هات الدراهم.

وبهت فقلت: - وأيّة دراهم!

- دراهمه ردها إليه.. ردها.. وإلا أبلغت الشرطة. ردّ إليه مائة وخمسون روبلاً سرقتهما منه في أوروبا عدّاً ونقداً.

ما العمل؟ إن هذه الأنثى اللعينة، وهي على ما هي عليه من سكر وعريضة تستطيع فعلاً تحريك الشرطة ودوائر الحكومة في هذا البلد، وهم لن يرفقوا بأمثالنا من السائحين بل سيلقون علينا القبض ومن يدري عقابه علينا. ولجأت إلى سياسة اللين والرفق، واستطعت أن أعيد إليها هدوءها بثلاث زجاجات من الخمر فارغمت على الأرض بطيخة من البطيخ ثم نامت ونام شاركو، وغادرنا القرية عند الصباح وتركنا فيها المرأة مع البطيخ.

ومضى شاركو متجههم السحنة من سكرة أمس، منتفخ الوجه، متغضن المعال، ييصق، فلا ينقطع عن البصاق ويزفر زفرات عميقات، وحاولت التحدث إليه فكان لا يجيبني ويكتفي بهز رأسه كأنها هو حصان أنهكه التعب.

النهار شديد القيظ، والهواء مقعم بروائح ثقيلة تنبعث من الأرض المبتلة التي يغطيها عشب كثيف ثقيل، عال يكاد يبلغ أكتافنا، ومن حولنا سكون مطلق، أما البحر وهو كالمخمل الأخضر فكان يصعد إلى السماء أنفاساً حارة حادة يترنج بها من يشمها، وحاولنا أن نختصر الطريق فسرنا في درب ضيق ترحف فيه حيات صغيرات حمر تتلوى تحت أقدامنا، وطالعتنا في أقصى الأفق سلسلة جبال تهب لها الشمس ظلالاً فضية. تلك هي جبال داغستان: صمت مطلق يخدر العقل، ويوحى بأحلام مطمئنة هادئة، وفي السماء قطعان من الغيوم السود تهرع إلينا لتلحق بنا، ويضم بعضها بعضاً، ثم تستولي على الأفق كله من ورائنا، ولا تبدو أمامنا إلا قزعات تحجب عنا جانباً من السماء، وسمعنا من بعيد جلبة عاصفة أدركها المخاض. يزداد رعداها قوة وقرباً.. وهطلت قطرات كبيرة من المطر على العشب فخس خشيئاً معدنياً.

ليس لنا ملجأ.. والظل يغمر السهل، وشكوى العشب ترتفع وتسري فيه رعدة الخوف، وهدر الرعد، واضطرب الغيم ومزقه برق أزرق يخطف البصر ودوى الرعد مرة أخرى، وعادت الظلمة فتمطت على الكون وتوارت وراءها الجبال الفضية، وانهمر المطر سيولاً ترافقه الصواعق تشر فوق السهب واحدة بعد واحدة، وعصفت الريح فتمدّد العشب على ظهر

الأرض، وازداد المطر ورتحه الهواء. كل ما في الكون يرتجف ويهتز
ويختلج.. والأنوار الخاطفة للأبصار تمزق بسهامها أحشاء الغيوم وتنير
بزرقتها شبح الجبال البعيد فلا يكاد يبدو حتى تنطفئ البروق فينطفئ، كأنها
ابتلعت هوة سحابة ليس لها قرار.

فوضى من الأصوات تزجر وترتعد، وأصداء ترجعها ترجيعاً يهب
لها حياة جديدة فكأنها تطهر الأرض التي دنستها السماء الغضبية بنيرانها،
فهي ترتجف خوفاً من هذا الغضب الأرعن. وشاركو يرتجف ويهمهم
ويلهث كأنه كلب قلق، أما أنا فشعرت بموجة من الفرح وكأني تحررت من
أعباء الحياة اليومية فأنا أنظر إلى هذه الألواح الفنية المدهشة المفجعة التي
ترسمها العاصفة بريشتها على الأرض وهزنتي هذه الفوضى العجيبة،
وأحسست بشيء من البطولة يغزو قلبي ويسري في عروقي واطمأنت
روحي إلى هذا الانسجام الوحشي المخيف وشعرت بجوع إلى الاشتراك في
هذا الانسجام إلى إظهار حماسي الكاملة وترحيبي التام بهذا المبدأ الغامض
الذي يتصر على الظلمات ويتصر على الغيوم.. وهذه الشعلة الزرقاء التي
تحرق السماء وتحرق لي صدري.. ولكن كيف أستطيع أن اترجم هذا
الإضطراب كيف أستطيع أن أعرب عن ذلك الإعجاب، وكلاهما يوحى
إليّ هذا المنظر الطبيعي الرائع ويخلقه في نفسي خلقاً.

وجعلت أغني في صوت عال، بكل ما أملك من قوة.. الرعد
يقصف والبرق يلعب والعشب يدمدم، وأنا أغني.. أغني شاعراً أني قد
ذبت في هذه الأصوات المتباينة، وفضت حماسة ونشاطاً.. ولي الحق فلست
أزعج أحداً من الناس إلا إتياني.. وحاولت أن أجعل من هذه العظمة الحية

وهذا الجلال القوي عظمي وجلالي.. وما هي ذلي تلك القوة التي تنطلق
تصهرني في ذاتها..

الزوبعة في البحر. والعاصفة في البر أمران لا أعرف في الطبيعة شيئاً
أعظم منهما ولا أسمى. إذن فقد غنيت بملء رثي وبملء أوداجي.. وأنا
مقتنع قناعة مطلقة أنني لا أزجج أحداً من الناس، وأن ليس من أحد يلومني
على ما أفعل، وفجأة أحسست يديين تقبضان على ساقبي، وترمياني في
حفرة ماء.. وإذا بشاركو ينظر إلّئ بنظرات قاسية تميّز غيظاً.

- هل أنت مجنون؟ كلا! إذن فاسكت. كفّ عن الصراخ.. وإلا
انتزعت حنجرتك من صدرك انتزاعاً. هل سمعت؟
وسألته متعجباً: - وهل أزعجتك؟

- إنك تخيفني. هل فهمت؟ العاصفة تزار، الله يتكلّم، وأنت تجرؤ
على الغناء.. ما رأيك؟

وأجبتة أن لي مطلق الحق في الغناء، حين يطيب لي الغناء، وأن له مثل
هذا الحق.

فأجاب في حدة: - لا أريد أن أغني.

- إذن فلا تغن.

- ولا تغن أنت.

- ولكنني أريد أن أغني.

وقال لي في غضب: - آه! أخبرني ما أفكارك. أخبرني من أنت؟

هل لك منزل تأوي إليه؟ هل لك أب يحنو عليك؟ هل لك أم ترأف

بك؟ هل لك أقارب ينصرونك؟ هل لك أملاك تدبر عليك مالا وخيراً؟

أخبرني من أنت وما شأنك على الأرض؟ أنت تعتقد أنك رجل! ولكن أنا أنا الرجل... إن لي كل هذا - ثم ضرب يده صدره - أنا أمير على!... أما أنت نعم أنت.. فلست شيئاً.. لا شيء لك.. وتقول «أنا أنا» ومن ذا الذي يعرفك؟ أما أنا فكل من في كوتاييس يعرفني.. وكل من في تفليس يخدمني. هل فهمت؟ لا تعارض مشييتي.. ولا تعاند إرادتي! ستكون لي خادماً وسأجعلك راضياً.. وسأدفع لك ما قدمت إليّ أضعافاً عشرة.

بل أنا أسألك: ماذا قدمت إليّ؟ كان مستحيلاً عليك أن تعمل غير ما عملت، لأنك تعلم أن الله يأمر أن يعين الإنسان أخاه الإنسان من دون انتظار لثواب ولا خشية من عقاب مع ذلك فسوف أدفع لك ما أسلفتني فلم تعذبني؟ ولم تزعم أنك تريد أن تهديني؟ ولم تخيفني؟ إنك تريد أن أكون مثلك وهذا ما لا يجوز وليس لك حق في أن تهبط بي إلى مستواك ومستوى أمثالك.. آه.. تفه تفه.

كان يخطب وينفخ ويتنهد وتأملته وقد فغرت فأبى دهشة وتعجباً. الحق أنه كان يرفع عن كاهله حملاً ثقيلاً من الغضب والنقمة تجمع وتراكم بعضه فوق بعض خلال رحلتنا فهو ينفضه الآن نفثاً ويلقيه إلقاءً وكان ليزيدني فهماً، ويضع سبابته فوق صدري ويهز يده كتفي فلماذا بلغ مقطعاً هاماً من خطبته ألقى بنفسه عليّ بكل ما فيه من ثقل وغرقنا في المطر وصبّ الرعد جام غضبه فوق رؤوسنا وما يزال شاركو يصرخ بأعلى صوته ليستطيع إسماعني. وأدركت ما في هذا الموقف من مأساة مضحكة فانفجرت ضاحكاً.

وأدار شاركو ظهره إليّ ويصق على الأرض باحتقار.

بدا شاركو منذ ذلك اليوم أكثر انقباضاً. وكان كلما اقتربنا من تفليس زاد انقباضه واكتنابه، وتغير وجهه ولكنه ظل صارماً وقبل أن نصل إلى مدينة «بلاد القفقاس» مررنا بمزرعة للجراكسة وانخرطنا نحصد الذرة واشتغلنا يومين عند جماعة لا يتكلمون الروسية إلا بصعوبة ويضحكون علينا ويشتموننا بلغتهم، وقررنا بعد أن شعرنا بكرههم يتفاقم في قلوبهم أن نرحل، وما كدنا نجتاز عشرة فراسخ حتى أخرج شاركو قطعة من القماش الموصل كان يخبئها تحت قميصه فنشرها في وجهي وهو يصرخ مستصراً.

- كفانا عملاً وتعباً: سنبيع القطعة ونشتري بئمنها كل ما نحتاج إليه

ونصل تفليس ومعنا ما يكفيننا، هل فهمت؟

الحق أنني جُئْتُ غيظاً وحنقاً فانتزعت من يده قطعة القماش وقذفت بها جانباً وألقيت نظرة إلى وراء.

إن الشراكسة قوم لا يعرفون المزاح.. فمنذ أيام قصّ علينا القوزاق هذه القصة:

حمل متشرد من مزرعة اشتغل فيها أياماً ملعقة من حديد، ولحق به الشراكسة وفتشوه وعثروا على الملعقة، فلم يفعلوا شيئاً غير أن فتحوا بطن السارق بطعنة من خنجر وطمروا الملعقة في موضع الشق، وعادوا في هدوء

تاركين هذا البائس الذي وجدته القوزاق يلفظ أنفاسه، وقصّ عليهم حكايته، ثم مات وهم يحملونه إلى القرية، وألحّ القوزاق على تحذيرنا من الشراكسة، وشفّعوا نصائحهم بأقاصيص من هذا النوع لا أستطيع إنكارها.

وذكرت شاركو بما سمعنا، فوقف قليلاً يصغي إلي، وفجأة وثب عليّ كأنه قط، يكثّر عن أسنانه ويغمض عينيه، ولرينبس بينت شفة، وظللنا نتلاكم ونتضارب خمس دقائق في قسوة حتى صرخ شاركو في صوت غاضب:

- كفى.. كفى.

وجلسنا وجهاً لوجه ونحن مرهقان ونظر شاركو في حسرة إلى المكان الذي ألقى فيه قطعة الموصلي الحمراء وقال:

- وعلام تضاربنا؟ آه.. كفى، تلك هي الحماقة.. هل سرقت مالك؟ إذن فلِمَ تغضب؟ لقد سرقت القماش رافة بك وشفقة عليك. فإنك أنت الذي تشتغل.. أما أنا فلا أستطيع أن أشغل.. إذن فماذا أصنع؟ أردت أن أساعدك تسي تسي.

وحاولت أن أفهمه ما في السرقة من خزي وعار فصرخ بي في لهجة احتقار:

- اخرس.. إن رأسك أشدّ صلابة من جرتومة الشجرة. ألا تسرق حين تجد نفسك على وشك الهلاك؟ أليس كذلك؟ وهل تعد حياتك هذه حياة؟ آه.. اسكت.

ولم أرغب في استثارته فسكت، وسجّلت له هذه السرقة الجريفة

الثانية بعد سرقة الأولى حين كنا على شاطئ البحر الأسود فسرق ميزاناً صغيراً لبعض الصيادين من اليونان وكدنا نتضارب في ذلك اليوم.

واسترحنا وهدأنا فتصالحنا ثم قال: - هيا بنا.

وتابعنا طريقنا ووجه شاركو يزداد تجهماً، ونظراته فيها غرابة وتلون،

وبينما نحن نجتاز عقبة داريال ونهبط وادي جوداؤور قال لي:

- نحن في تفليس بعد يوم أو يومين.. تسي تسي، وسكت، ثم قال:

- سأصل إلى البيت «أين كنت؟» «سافرت»، وسأذهب إلى الحمام

وسأكل كثيراً وكثيراً. سأقول لوالدي «يا أماء أنا جائع» وسأقول لوالدي:

«يا أبتاه عفوك عني، لقد ذقت طعم الشقاء وخبرت الأمور ومارستها،

وعرفت أن الحفاة شياطين طيبون» وإذا ما لقيت واحداً منهم أعطيته روبلاً

وذهبت به إلى الخمارة وقلت له: «اشرب.. اشرب لقد كنت أنا أيضاً متشرداً

مثلك» وسأحدث أبي عنك «انظر إلى هذا الرجل يا أبتاه. لقد كان لي أخاً

كبيراً ألقى عليّ كثيراً من دروس الأخلاق. ولقد ضربني هذا الحيوان

وأعطاني ما أكل والآن جاء دورك في إطعامه سنة كاملة. سنة كاملة على

الأقل».

هل سمعت يا مكسيم؟

كنت سعيداً حين حدثني هذا الحديث الذي تنبض فيه السداجة

والعفوية وزاد سروري أنني لا أعرف أحداً في تفليس، والشتاء قريب، وقد

بدأ هطول الأمطار.

الحق أن شاركو أوحى إلي بعض الثقة والأمل.

وأسرعنا في سيرنا، هذه مشيطة عاصمة أيريا القديمة.. نحن غداً في

تفليس ورأيت على بعد خمسة فراسخ عاصمة القفقاس محصورة بين جبلين. ها هنا تنتهي الرحلة، وشعرت شعوراً غامضاً أنني سعيد. أما شاركو فلم يعباً بذلك ولم يكثر له، كان يلقي نظرات بلهاء ويبصق من حين إلى حين كأنه جائع ويعض شفتيته الماء، ويمسك بطنه يديه. لقد أسرف في أكل الجزر.

- أظن أنني، وأنا الأمير الكرجي، سأدخل المدينة في وضوح النهار أشعث أغبر ممزق الثياب، كلا.. سنتظر مغرب الشمس فلنقف. واسترحنا في ظل حائط لبيت مهجور، ولفنا لفافة أخيرة وجعلنا ندخن ونفرق من البرد. كانت الريح شديدة عاصفة تجتاح طريق جرجيا الحربية. وجلس شاركو يترنم بلحن حزين.. وجلست أحلم بغرفة دافئة، وفراش وثير وبنعم أخرى وافرة بعد هذه الحياة المتشردة الشقية. ونهض شاركو في عزم وقال: هيا بنا.

كان النهار قد انقضى، وسطعت الأنوار في المدينة.. فكان منظرها رائعاً. الأنوار تنبثق من خلال الظلام نوراً بعد نور فتضيء الوادي المظلم والمدينة المختبئة في حضن الوادي.

- أصغ إلي.. هات قناعك أستر به وجهي فلا يعرفني أصدقائي.. واعطيته قناعي، وبلغنا شارع (الجنسكاي) وشاركو يصفر هادئاً مطمئناً ثم قال: - يا مكسيم! أترى هنالك موقف الحافلات عند الجسر؟ أذهب وانتظرن قليلاً. انتظرن! أرجوك! سأذهب إلى منزل قريب أسأل صديقاً لي عن أهلي، عن أبي وأمي.

- أتغيب كثيراً؟

- دقيقة واحدة أنا راجع.

ومضى في درب ضيق قاتم وتوارى فيه.. ولكن إلى الأبد كان هذا آخر العهد به. نعم إنني لم أرَ بعد ذلك وجه هذا المخلوق الذي كان رفيقي طوال أربعة أشهر من حياتي. ومع ذلك فما أزال إذا ذكرته وفكرت به أذكره في غير ما حقد ولا موجود، بل في بهجة وسرور.

لقد تعلمت منه أموراً كثيرة لا أستطيع أن أتعلمها في الكتب الكبيرة التي كتبها الحكماء ذلك ان فلسفة الحياة كانت وما تزال أكثر عمقاً وأوفر سعة من فلسفة الناس.

لأنكا

تمددا على ضفة النهر يتظران القارب ويتطلعان صامتين على أمواج
نهر الكويان السريعة العكرة تتلاطم تحت أقدامهما. أما لأنكا فكان يغفو
ويستقيظ حيناً بعد حين، وأما جده أرخب فكان يبحث عن النوم، والنوم
يفر منه، وقد بلغ ألمه حداً يمزق صدره.

وبدا وجههما فوق تراب الأرض شيتين يستحقان الرحمة والشفقة،
ويبعثان الاشمزاز والنفور في وقت واحد، أحدهما كبير وثانيهما صغير
وكلاهما أغبر لونهما التعب والحرق البالية التي يرتديانها.

استلقى الجد أرخب، وهو ناحل طويل، فوق عصابة ضيقة من
الرمل تمتد على ضفة النهر كأنها شريط أحمر، وكوم لأنكا، وهو صغير
ضعيف، نفسه كالكرة، ويحيط إليك وأنت تراهما هكذا، أنك ترى غصناً
غضاً قُطِعَ عن شجرة عجوز وقد ألقت بها الأمواج على الرمال.

ورفع الجد رأسه ونظر إلى السهل في ضفة النهر الأخرى وقد
غمرته الشمس وحف به القصب وتناثرت خلال القوارب، كل شيء
محزن ممل. والطريق شريط أغبر يمتد ثم يضيع، وعينا الجد الحزینتان
تطرقان مفعمتين بالضجر تحت حاجبين أحمرین مستفخین. وسحته كتاب
تقرأ فيه صفحات من الحزن والأسى، وسعل ورفع يده يسدّ فمه ونظر

إلى حفيده قلقاً. كانت سعلته جافة ممزقة.. كان عليه أن يقوم..
وانحدرت الدموع من مقلتيه.

الصمت الرهيب يغمر الصحراء الملتهبة بحر الشمس، ولا يعكّر
صفوه غير حفيف الأمواج الحريري، والحقول تمتد على ضفتي النهر، هناك
في الأفق الذي لا تكاد تراه عين العجوز المتعبتان تموج يحيط القمح الذهبي
في لمعان السماء الصافية وهناك غير بعيد نخلات ثلاث يضيفن ظلالهنّ
الشاحبة على الأرض. ويتغيّرن حيناً بعد حين، فهن كبريات مرةً وصغيرات
مرات أخرى.. وهالك أخيراً تبدو السماء وحقول القمح وكأنهما يتحدان في
حركة اهتزازية عريضة.

وفجأة توارى هذا كله وقد غمره سراب الصحراء الجارف فكانما
هو حجاب شفاف صقيل جاءت ثنياه من حواشي الأفق وتمشت مع
ضفاف النهر، أو كأنها هو نهر آخر هبط من السماء صفاء يحمل قليلاً من
الرطوبة إلى الصحراء التي تقور وتغلي كالمرجل.
وأخيراً اختفى كل شيء.

هذا مشهد لا يعرفه الجد ارخب في مسقط رأسه في روسيا، قاده إليه
اليوم جوعه، وفرك عينيه وتخيّل إليه أن حرارة هذه الصحراء ستعميه بعد
أن حطمت ساقيه، وهو الذي كان يقطع في بلده أمس 30 فرسخاً في اليوم
الواحد فأصبح لا يكاد يقطع نصف هذه المسافة اليوم.

بل إنه يشعر اليوم أنه مريض وأنه ينهار وإن نهايته قريبة، وعلى
الرغم من أن الموت لا يخيفه، وعلى الرغم من أنه يعتبره وظيفة عادية من
وظائف الطبيعة على الرغم من ذلك كله فقد تمنى أن يموت في الأرض

التي وُلِدَ فيها هناك في أورييل. ثم أن مصير حفيده يرهقه ويعذبه. ماذا سيغدو لانكا إذا مات جده العجوز؟

كان كلما سأل نفسه هذا السؤال وهو سؤال يردّده مراراً كثيرة في اليوم الواحد. يشعر بشيء يعصر نفسه عصراً ويقشعره تهزّ جسده هزّاً. ويضيق شديد وألراحاد يريد حين يعانيتها لو عاد حالاً إلى روسيا. ولكنه يتذكر القرم وسهولها المجدبة وفلاحيتها الحمقى، وكلاهم الكبيرة العقور، والتتر الغلاظ القلوب، ومغامرة أخرى مرت به في تامان كادت تُلقِي به وبخفيده في غياهب السجون.

ليته يعود إلى روسيا.. ولكن هذا أمل لن يبلغه فالموت مدركه وهو في طريقه إليها. إن الكوبان على الأقل يجود عليه ويتصدق. نعم إن أهله سآخرون قساة ولكنهم أغنياء، إنهم يعطون المتشردين قبل السؤال. وربما استطاع أن يجد للانكا عملاً.. ثم أن الطفل ليس هنا أكثر يتماً منه هناك في مسقط رأسه.

ونظر إلى حفيده وعيناه مغروقتان بالدموع، ولمس شعره بيده المتحجرة.

رفع الطفل وجهه الصغير إلى جده، وبدأ أنفه الدقيق وشفتاه الرقيقتان الصفراوان وقد شققتهما رياح الصحراء، وعيناه الزرقاوان الواسعتان تزدادان سعةً في هذا الوجه الأمرد الذي تعلوه نكت من جدري الماء.

وسأل الطفل: - متى يأتي الزروق؟

وغطى عينه بيده وأحد النظر فرأى النهر يلمع في نور الشمس لمعاناً

يخطف الأبصار.. ومكت قليلاً ثم أجاب على سؤاله: - كلا.. إنه لا يتحرك.. ولرباتي؟

وقال ارحيب في رفق ولين: - لريدعه أحد ولذلك ظل ساكناً، هل نمت؟

وظل يداعب رأس حفيده، وحرك لانكا رأسه حركة غامضة وعاد فاستلقى على الرمل وامتد الصمت دقائق، ثم قال وعينه تحدقان في النهر: - لو كنت أعرف السباحة لسبحت. إن مجراه سريع جداً، وليس عندنا نهر مثله. ولم يسرع هذه السرعة؟ كأنها هو يخشى ألا يتأخر عن موعد مضروب.

كان صوته قاسياً رتيباً إلى حد بعيد ثم ردّ عينه عن النهر غاضباً. وترث الشيخ قليلاً وقال: - هناك طريقة. لنحل حزامينا ولنصلهما ثم اربط بطرف منها رجلك وأمسك الطرف الثاني، وعندئذ تستطيع أن تبتد في النهر.

- تلك طريقة لا تفيد. النهر سريع وقد يجرك معي فنغرق.
- أما هنا على الشاطئ فلا، أما هناك في وسطه فنعم. ما أسرع مجراه إنه يفيض في الربيع ولا شك.. مروج وسهول لا حد لها.

وكان لانكا تعب من الكلام فلم يرد على جده. وأمسك بقبضة من الطين ثم ضغط عليها بأصابعه فتفتت. والجد يراه ويغرف في أفكاره.
وقال لانكا وهو ينفخ التراب في رفق وصوت رتيب:

- غريب. كتلة من الطين أمسكت بها ثم سحقته فاستحالت إلى ذرات من التراب لا تكاد تُرى.

- وماذا في ذلك من غرابة؟ وأي غرابة في هذا؟

وجعل يسعل ويرى من خلال الدموع عيني ولده. تبرقان في وجه

جاف نحيل. وسكت عنه السعال، فأعاد سؤاله: - ماذا ترى من غرابة؟

- من غرابة. نعم إني...

وأشار الطفل إلى شاطئ النهر وقال: كم من منزل يُبنى هناك على

ضفة هذا النهر؟ وكم من مدن قطعناها؟ في كل مكان نأس.

وخائنه فكرته فتوارت... وعاد إلى تأمله وعيناه غارقتان في الفراغ.

وحنا الجدد على الحفيد، بعد صمت قصير، وقال له في رفق:

- إنك حكيم، وإنك لتتطق بالحق.. كل ما على التراب تراب:

المدن.. والبشر ونحن.. كلنا تراب.. آه يا لانكا يا لانكاي الحبيب!.. لو

كنت تعرف القراءة والكتابة لشققت طريقك. إنك لتفكر تفكير الشيوخ

المجرمين يا عصفوري، يا شحروري، ما هو مصيرك؟ ماذا ستكون؟

وصرخ لانكا في حرارة وهو ينقذ شعره الكتاني من بين أصابع جده

المرنجة:

- دعني. ماذا تقول؟ أتدعي أن المدن وما يحيط بها تراب في تراب.

- تلك مشيئة الله يا حماتي.. كلنا من تراب وإلى التراب نعود.

وليس الأرض إلا تراباً.. وإذا كان الله قد قدر ذلك فعلى الإنسان أن يعيش

عيشة العمل والسداجة. وسأموت عما قليل فماذا يحل بك؟

طالما سمع لانكا هذه الجملة وطالما هزته وأوحت إليه بفكرة الموت،

فأدار رأسه وقطع حشيشة وجعل يقضمها بأسنانه في بطء. كان هذا

الموضوع حديث الشيخ الدائم. إنه الجرح الذي لا يزال يقطر دماً.

- ولولا تجيب؟ وما عساك تفعل؟ ماذا ستصنع إذا مت؟

- ولكن طالما أجبته.

ونظر لانكا إلى الشيخ نظرة شزراء ملولاً هذا لون من الحديث لا يرضيه ولا يسره، إنه ينتهي دائماً إلى نزاع: وما أكثر ما أندفع الجدُّ في أحاديث عن موته القريب، وما أكثر ما أصغى إليه لانكا بادئ الأمر وأشفق عليه وخاف من مستقبله الذي ينتظره ويكئ.. ولكن هذا الحديث أصبح معاداً مكروراً وجعل يُرهِقُه ويضنيه.. ثم لم يصغ إليه، بل كان يمضي هائماً في أفكاره.. ورأى الجد ذلك فغضب وكم قال له (أيها الغبي إنك تنكر ما أحمل في سبيلك من عبءٍ وجهد)، بل لقد اتهم لانكا مرةً أنه يريد له الموت العاجل.

- ماذا تقول أيها الأحمق الصغير؟ أنت لا تفهم الحياة ولا تستطيع فهمها. وما عمرك؟ إحدى عشرة سنة.. أنت عود غصن طري، لا تستطيع العمل ولا تعرف أين تذهب أنتتظر أن يبط عليك من السماء من يحميك ويساعدك؟ لو كنت ذا مال لوجدت الصديق الذي هو على استعداد لتبذيره وتبديده معك. أما التسوّل فأمر غير لذيذ حتى على من كان عجوزاً متهدماً مثلي: تحني رأسك لكل من يمر وترجو رحمته وتستمطر شفقتة، والناس يشتمونك حيناً، ويضربونك حيناً ويطردونك أحياناً. اتعتقد أنهم يرون المتسوّل إنساناً مثلهم؟ كلا عرفت هذا طول سنوات عشر قضيتها متشرداً في كل مكان، كسرة الخبز الحقيمة التي يتصدّقون بها عليك يعدونها أثمن من ألف روبل. والصدقة النحيلة التي يقذفون بها إليك يظنون أن قد وجب أن تفتح لهم أبواب الجنة، وهل

تعرف لماذا يتصدق الناس؟ كلا! إنهم لا يتصدقون طائعين مختارين أيها الصديق ولكنهم يحاولون بالصدقة تخفيف ما على وجدانهم وضمايرهم من أعباء وأثقال. إنهم حين يعطونك كسرة خبز يشعرون أنهم عندئذ يستطيعون من غير ما حياء ولا خجل من أنفسهم، أن يأكلوا ما طاب لهم في هدوء وراحة بال، الرجل الشبعان حيوان غير قادر على الشفقة والإحسان على الإنسان الجائع، وهو أيضاً غير قادر على فهم آلام أخيه الإنسان الجائع. الشبعان والجوعان عدوان، كل منهما سد يقف في وجه الآخر، ومستحيل أن يتراحما أو يتفاهما. والمتسول في عين الشبعان حمة طين يتعثر بها في طريقه فليقذفها قذفاً.

وتملك الغضب والحزن الجدد، واختلجت شفتاه، وتقلبت عيناه في محجريها الأحمرين، وازدادت تجاعيد وجهه المجمع عمقاً وقسوة، وما كان لانكا يحب أن يرى جده في مثل هذا الحال، إنه عندئذ يخيفه ويرعبه.

- أفهمت لماذا اسألك: ماذا تفعل إذا مت؟ إنك طفل نحيف، والعالم من حولك عفريت مارد، لست عنده أكثر من لقمة سائغة، وذلك ما لا أريد أن أكون. أحبك يا ولدي، ليس لك غيري، أبحق لي أن أموت؟ أنا لا أستطيع أن أمضي وأتركك وحيداً، فإلى من تلجأ؟ وعلى من تعتمد؟ ولكن لماذا تصرف عني أنظارك؟ يا رباه؟ الحياة ترهقني. ومع ذلك لا أريد أن أموت حرصاً على هذا الطفل.. فواجبي أن أدافع عنه وأحميه. طالما هدهدته يداي الهرمتان منذ سبع سنوات. اللهم عونك ورحمتك.

وجلس الأب ثم جعل يبكي ورأسه بين ركبتيه المرتجفتين
وتصاعدت زفراته فهزت كتفيه.

والنهر ذو المجرى السريع يهرب نحو الأفق، ويقفز على السدود،
وكأنه يريد أن يخلق بصوته الجمهوري دموع الشيخ ونشيجه، والشمس في
السماء صافية لامعة، في ضوءها مرح ساخر، والنسمة الناعمة تكفكف من
تمتمة الأمواج المضطربة.

وقال لانكا في قسوة:

- آه.. كفك أنيناً ونحيباً يا جدي.

واقرب من العجوز غاضباً وقال: طالما سمعنا هذا فسئمناه. لن
أضيع.. لن أضيع.. سأعمل في مطعم من المطاعم.

وأن الجدد يبكون وقال: سيشبعونك ضرباً ولطماً.

واحتد لانكا وأجاب: - هذا ممكن ويمكن كذلك أن يقتلونني،
وسأمضي في طريقي، وأشقّه، وأنقذ نفسي وسكت فجأةً وفكر قليلاً ثم قال
في صوت خافت:

- وسأدخل الدير إذا اضطررت.

وتنهّد الجدد الذي أعادت إليه هذه الفكرة روحه وقال: إذا
استطعت..

وعادت إليه موجة من سعال أصم هزت أركانه هزاً.

ودوى فوق رأسيهما صرير عجلة، ومزف الهواء صوت عنيف
يقول: القارب.. القارب! وارتجف المتسولان ووقفاً وأمسكا بكيسييهما
وعصويهما، وتقدمت العجلة ذات الدولابين تغوص في الرمال وتصد

وفيها قوزاقي يرد رأسه إلى وراء، وهم أن يعيد نداءه، وهو يستنشق الهواء ويفتح فمه، ويرفع صدره، وأسنانه البيض تلمع في ثنايا لحيته السوداء الحريرية والدم يملأ عينيه، وتسرح العين من خلال قميصه المتموج ومعطفه الذي يلقيه في إهمال فوق كتفيه في صدر يغطيه الشعر وتحرقه الشمس، ويتصاعد من كيانه كله تعبير كامل من الصحة والقوة والعنفوان، ويُمِيلُ إليك وأنت تراه أنه فرس من خيول السابق المتينة، أو أنه أحد هذه الدواليب التي يطوقها الحديد في عجلته وصرخ: هيا هيا.

وهرع إليه الجد وحفيده فخلعا قبعتيهما وانحنيا انحناء عميقاً، وأهاب بهما القادم الجديد: أهلاً وسهلاً.

ثم نظر إلى ضفة النهر الثانية فإذا القارب يتقدم في هدوء، والتفت إلى المتشردين وسألها:

- هل جئتما من روسيا؟

وأجابه اربخب وهو يجيبه: - نعم أيها المحسن الكريم. وقال وهو يقفز من عربته ويربط حصانه:

- الناس جياع هناك، أليس كذلك؟

- حتى الخنافس تموت هنالك من الجوع.

- الخنافس، حتى فئات الخبز لا تملكونه إنكم تستطيعون أن تأكلوا،

أما أن تعملوا فلا، إن المجاعة لا تنزل بمن يعمل.

آه أيها المحسن، أرضنا سبب شقائنا إنها تأبى أن تنتج شيئاً، فطالما امتصوها حتى استنفذوها.

وحرك القوزاقي رأسه:

الأرض ١٩ إنها يجب أن تنتج في استمرار، وهي لهذا كانت، وليست أرضكم هي ما عندكم من سيء ورديء، ولكن السيء أيديكم، فالأيدي الماهرة تستطيع أن تستتبت الصخر، هل زرت شواطئ البحر الأسود الجنوبية؟ إنهم هناك يفلحون الصخر أيها الجد.

واقرب القارب، وقفز منه إلى الرصيف قوزاقيان قويان وجهاهما قرمزيان، وبلغا الشاطئ فتنفّسا وقال صاحب العجلة: الحر شديد.

ورفع يده إلى قبعته وهو يجر عجلته إلى القارب، وقال أحد

البحارين:

- نعم... نعم..

ثم وضع يديه في جيبي سرواله واقرب من العجلة ففحصها وهو يتنشق الهواء ملء رثيه، وظل البحار الثاني جالسا على الأرض وهو يئن. وخلع حذاءه وركب الجد وحفيده القارب وجعلا ينظران إلى القوزاق، وقال صاحب العجلة: - هيا...!

وسأله الرجل الذي يفحص العجلة:

- أما عندك ما نشرب ١٩

واستطاع ذلك الذي كان يرهقه حذاؤه أن يخلعه ونظر إلى كعبه.

- لا!.. ولم هذا السؤال؟ ألا يكفيك ماء الكويتان.

- ماء.. لكن هل أسألك ماء؟

- آه إذن فأنت تطلب خمرا؟ لا ليس عندي خمر.. وقال النوتي في

حزن:

- ولما لا خمرة عندك؟

وعلقت عيناه بالقارب وقال: - هيا.

وقام القوزاقي الآخر بمشروع إعادة لبس حذائه، ويصق الأول في راحة كفيه وأمسك بالحبل وأعانه صاحب العجلة وقال صاحب الخمر لارخيبي:

- ألا تستطيع يا جداه مساعدتنا؟

وحرك ارخيب رأسه حزينا قائلاً:

لقد بلغت العمر عتياً، ووهن عظمي وأنهى القوزاقي الآخر نزاعه لحذائه وقال لصاحبه:

- ولم تطلب مساعدته؟

وأراد أن يؤكد للعجوز صواب نظريته فتمدد في القارب، وكال له رفيقه كيلاً من الشتائم فلما رآه أصم لا يرد جعل يرقص ويقفز.

وتمتم ارخيب في أذن لانكا: - أرايت هؤلاء الناس يا لانكا؟ ما أسمنهم، وما أكثر شعبهم! إن هذه البلاد جنة سعيدة.

وظل لانكا ينظر إلى الماء الجاري ودمدم الجد في صوت خافت:

ياله من خنزير، يزعم أن أيدينا هي الرديئة لا أرضنا وهل يعرف معنى العمل؟ أه لماذا يعطي الله قليلاً من الناس الكثير ويحرم كثيراً من الناس القليل.

وسكت قليلاً كأنه ينتظر جواب لانكا، فلما لم يجب أجاب هو عن

سؤاله:

- إن الله يفعل ذلك ليبلو قلوب الناس، ويختبر نفوسهم، من لا يرض بنصيبه من الدنيا يمت ولا يذق طعم السرور والراحة. وظل لانكا يحدق في الأمواج وشعر أنه رأسه يدور وكلت عيناه من النظر إلى مجرى الماء السريع فأغمضهما، وأما همسات الأب في أذنيه، وأما صرير المجاذيف، وأما أصوات الماء الذي يقفز قفزاً، أما كل ذلك فكان يغوص به في إغفائه، وأراد وقد أخذته سنة من النوم أن يستلقي ويتمدد، ولكن مصادفةً فجائيةً أفقدته توازنه فوق وقع وفتح عينيه وأجال نظراته وإذا بالقوزاق يضحكون وقد رسا قاربهم على الشاطئ وربطوه بجذع شجرة محترقة.

وقال القوزاقي صاحب العجلة:

- لقد نمت وأنت مرهق، هيا إلى العجلة وسأحملكما إلى القرية. وأنت أيها الجد تعال إلى جانبي.

وشكر الجد القوزاقي بصوت متهذج وتسلق العجلة وهو يثن، وركبها لانكا ومضت العجلة في خلال غيمة من الغبار الناعم الأسود وجعل الجد يسعل سعالاً لا ينقطع.

وشرع القوزاقي يغني أغنيةً غربيةً مقطعةً تنتهي بصفير ثم غنى أغنية أخرى لا وزن لها ثم قطعها فجأةً وغنى أغنيةً ثالثةً في صوت حاد عال وهو يكبكب الأصوات كما تُكَبِّبُ المرأة شلّةً من الخيطان، فإذا وصل إلى لازمة قطعها في عنف. إن بين هذه الأغاني وبين ذلك السهل الواسع الذي تزينه هنا وهناك قطع بيض من السراب تتموج في الهواء. إن بينهما انسجاماً عجيباً.

الدواليب نصرّ صريراً شاكياً متعجباً. وعواصف الغبار تشتد وتطير والجذ يحرك رأسه ويسعل دون انقطاع ولانكا يتخيّل أنه سيصل عما قريب إلى القرية القوزاقية وسيطلق عما قريب في شوارعها ليردد تلك الأغنية التقليدية للمتسولين: (أيها الرب المسيح).

وسيهزأ به أطفال القرية وسترهقه نساؤها بالسؤال عن روسيا ومجاعتها، كان يتخيّل هذا كلّه وسعال الأب يزداد حدةً وعنفاً ورأسه يزداد انحناءً، وزفراته تتواتر وتطرد، ولانكا يتذكر ما سيقتص من مغامرات.

سيحدث الناس عن المجاعة في روسيا. هذه المجاعة التي تبتلع الناس ابتلاءً، إنهم يتساقطون في الشوارع وفي الدوروب موتى، ويقون كذلك أياماً طويلة ولا يفكر الناس بدفن هؤلاء الأموات نعم إن ذلك لم يحدث فعلاً ومع ذلك فينبغي أن يقال هذا وأن يقال غيره من ألوان الهذيان لتكون الصدقة أوفر كميةً وأسهل منالاً. ومع ذلك فماذا تفيد الصدقة في هذه الديار؟ وفي غيرها يمكن أن يباع كيل الحب بأربعين أو خمسين كوبكا، أما هنا فليس من أحد يشتريها منك بقليل ولا بكثير، بل إن المتسولين أنفسهم يضطرون أحياناً إلى رمي قطع طيبة من الخبز. إذن فلماذا يسرع الجد طافراً من قرية إلى قرية؟ يستطيع أن يمكث في القرية الواحدة أسبوعاً كاملاً، ولكنه لا يفعل ذلك، بل هو لا يكاد يبلغ القرية ويدور فيها ويأخذ منها أكثر ما يستطيع حتى يسرع إلى النجاة منها كأنها هو لص تطارده القوانين.

وسأله مرةً لانكا عن هذا، فقال الشيخ في شيء من الحزن والغضب:

- أنت أبلة فاسكت. أنت لا تستطيع أن تفهم ما أعانيه من أجلك. وأنت لا تستطيع أن تعرف ما أرمي إليه، أنا أبحث عن سعادتك وعسى أن أنقذك من حياة الفلاحين الأشقياء، فاسكت.

وسألها القوزاقي وهو يرى شكلهما المزري: أتسولان.

وتنهذ الجدد وقال: - نعم أيها المحسن الكريم.

- قم أيها الجدد. سادلك على منزلي وإذا شئت نمت فيه.

وأجهد الشيخ نفسه حتى انتصب واقفاً، ولكنه عاد فوقع وأصاب جانب العجلة مرفقه فصرح صرخة ألم، وقال له القوزاقي في رفق: اجلس أيها الجدد.. إذا احتجت إلى ملجأ فاسأل عني عن تشيرني: أندره تشيرني.. والآن انزل.. وإلى اللقاء.

وقف لانكا وجده عند نخيلات تلوح من خلالها سقوف البيوت المصنوعة من ألواح الخشب، وتمتدُّ من الجانبين يميناً وشمالاً صفوف من النخيل يعلو أوراقها غبار دقيق أسمر وقد لفحت الحرارة قشرتها السمكية ففصلتها عن جذوعها القوية المستقيمة، وانفتح أمام المتشردين زقاق ضيق على جانبيه سياجات من خشب مضى في القوزاقي فمشيا وراءه مشية متعبة مشية من اهترأت حياتهم في ذرع الأرض ذهاباً وإياباً. وسأل الجدد حفيده:

ماذا نفعل يا لانكا؟ أنمشي سوية. أم يمضي كل منا في طريق؟

وتابع من دون أن ينتظر الجواب:

- خير لنا أن نسير معاً، فالناس لا يعطونك إلا القليل، وأنت لا

تتقن التسول.

وأجاب لانكا في اشمزاز: وما نصنع بالكثير إذا أعطانا الناس الكثير؟ أنستطيع أن نأكله كله؟

- ماذا نصنع به أيها الأبله؟ قد نجد من يشتريه. والدراهم شيءٌ غال وثمين. وسوف تستطيع بها بعد موتي تدبير أمورك.

ولمس الجلد بيده رأس الطفل وهو يتسم ابتسامة طيبة:

- أتعرف كم جمعت في رحلتنا الأخيرة؟

وسأل لانكا في غير اكتراث: - كم جمعت؟

- أحد عشر روبلاً ونصف روبل. أليس هذا عظيماً حقاً؟

ولكن عدد الروبلات وفرح الجلد لريتزا الطفل من أحضان آلامه، ورأى الشيخ ذلك فتتهد وقال: يا لك من طفل! طفل صغير لا يفهم، إذن فأنت ترى أن يمضي كل منا في طريق.

- طيب.

ومشى الجلد في زقاق عن شمالي الطريق ومضى لانكا فيها، ولم يكد يقطع عشر خطوات حتى رنّ في أذنه صوت محطم:

- من مال الله يا محسنين.. من مال الله..

ذلك عبث يد بأوتار عود، غير موزون، وارتجف لانكا وأسرع في خطاه. إن زفرات جده توقظ في نفسه دائماً شعوراً مريراً مؤلماً. وإن نحبيه إذا لم يجد عليه المستول بصدقة يُشعره أن كل شجاعته انهارت وأنه أصبح جباناً رعيدياً.

وصوت الجلد ما يزال يبلغه في أنغام متكسرة مرتجفة، يحمل له إليه

الهواء الثقيل الناعس من أزقة القرية، الهادئة كأنها في ليل ومشى لانكا في ظل شجرة كرز تتدلى أغصانها على الأرض. والنحل يطنّ حولها. وخلع جرابه عن عاتقه، وأسند إليه رأسه ونظر إلى السماء من فروج الأوراق التي تستر وجهه، واستغرق في نوم عميق وقد حجبتة عن عيون المارة الأعشاب الكثيفة وظلال السياج.

وأيقظه من نومه صوت غريب يقلق الهواء، هناك من يبكي. إنه نحيب طفل يائس وزفرات نهداً ثم تعود أكثر قوة وأكثر قرباً، ورفع رأسه ونظر إلى الطريق من خلال الأغصان.

ورأى طفلة جميلة لا تتجاوز سبع سنوات، تلبس ثياباً نظيفة، وقد أحمرّ وجهها وابتل بالدموع وكانت تمسح عبراتها حيناً بعد حين بذيل ثوبها الحريري، ومضت في طريقها في بطءٍ تجرّ رجلها جراً وتثير من ورائها سحابة من غبار، هي لا تعرف ولا شك أين تمضي ولا لماذا تمشي! وفي عينيها السوداوين النديتين تقرأ صفحة من صفحات الحزن العصبي، وأطلّت أذناها الصغيرتان الموردتان في غنج ودلال من خلال شعرها الكستنائي الذي تتدلى غداثره على جبينها وخديها وكتفيها، وعلى الرغم من دموعها فقد وجدها لانكا لعباً لطيفةً مسليةً، أنها ولا شك عنيدة.

وقال لها وقد اقتربت منه فهب واقفاً: - لماذا تبكين؟

وانتنفضت ثم وقفت وقطعت بكاءها العالي واستمرت تنشج في صمت ورقة لحظات ثم اختلجت شفتاها من جديد؟ وتبدلت هي بدلاً مضحكاً، ورفع النشيج صدرها وخفضه، ثم مضت في طريقها وهي تبكي

بكاءً عالياً. وشعر لانكا أن شيئاً ما يزدحم في صدره وعزم على اتباعها، وقال لها قبل أن يدركها:

- لا تبكي.. ألا تستحين من البكاء وأنت كبيرة؟

ولما أدركها أمعن النظر في ملامحها ثم هز كتفيه وقال لها في اعتزاز:

- وماذا يبكيك؟

وقالت في صوت يتمطى: آه.. لو فعلوا بك ما فعلوا بي.

وقعت في الطريق في قلب الغبار، ثم سترت وجهها بكفيها وجعلت تبكي بكاء يائساً. وبدرت من لانكا بادرة احتقار وازدراء.

- آه لست إلا امرأة.. نعم امرأة وكفى. هذا كل شيء.

ولكن هذا التصريح الخطر لم يحمل لها عزاءً ولا دواءً وظلّت العبرات تنهمر عبرةً عبرةً من فروج أصابع الطفلة الموردة، فأحزنه ذلك وأوحى إليه رغبةً جامحةً في أن يبكي هو كذلك معها ومال إليها يداعب شعراتها في رفق وسحب فجأةً يده وقد أحس بالخوف من جراته وتماديهِ. وظلّت هي تبكي ولا تنبس بكلمة وعاد لانكا يقول لها وهو يرغب في مد يد المعونة إليها:

- اسمعي. قولي لي لماذا تبكين؟ هل ضربوك؟ هل تشتكين؟ قولي لي أرجوك وسأساعدك وسوف ترين، عل أضعت شيئاً؟ سأفتش عنه معك. وهزّت البنت رأسها وقالت وهي تنتحب ولا ترفع عن وجهها كفيها:

- أضعت عقداً، جاء به أبي من المعرض، فيه حبات زرق ذات أزهار، أضعت عقدي.. أضعت عقدي.

وعادت تبكي بكاءً أشد مرارةً وتقطع نحيبها ألفاظاً مختنقة:
أوف.. أوف.. أوف..

وأدرك لانكا أنه لا يستطيع إلى تعزيتها سبيلاً فاعتزل جانباً ثم جعل يتأمل السماء. كان مضطرباً وكان مشفقاً، وأخيراً قال: - لا تبكي.. ربما وجدوه.

ورأى أنها لا تهتم به ولا تصغي إليه، فابتعد عنها قليلاً وتصور أنها ستلقى جزاء ما أضاعت ضرباً وإهانة، واستعرض في خاطره هذه الحكاية: الأب القوزاقي الأسود الجبار يضرب هذه الطفلة، البيضاء الجميلة فترتجف وتبكي ثم تتدحرج تحت أقدامه..

وابتعد لانكا خطوات ثم اعتمد على السياج الخشبي وجرب إيجاد جمل بهيجة رقيقة يخاطبها بها ولكن كل هذه الألوان الطيبة من التعبير ندت هاربة ولم تخطر له على بال.

- قومي يا صغيرة من عرض الشارع. أرجوك أن تكفي عن البكاء. عودي إلى بيتك. قصي على أهلك ما حدث لك. قولي لهم أنك أضعت العقد. أشعرين سلفاً بالآلام الضربات التي سينهالون بها عليك؟
كان صوته رقيقاً مفعماً بالحنان، ورأى في سرور أن الطفلة عندما سمعت جملته الأخيرة الساخرة نهضت من مكانها، وتابع مبتسماً فرحاً:
- مرحى لك. عودي إلى بيتك. أتريد أن أرافقك أون أقص على والديك أمرك؟ سأعرف كيف أدافع عنك. لا تخافي.

وهز لانكا كتفيه في كبرياء وألقى حوالبه نظرة انتصار وفخر وأجاب الطفلة وهي تبكي وتنفض الغبار عن ثيابها:

- كلا.

وقال لانكا في لهجة رجولية فحلة، وأصلح قبعته فوق أذنيه:
- لو أردت لذهبت معك.

وباعد بين رجله.. وكانت أسنانه تهتز من حوله، وضرب الأرض
بعضاه ورمق الطفلة في عناد ولعلت الجرأة والكبرياء في عينيه الحزبتين.
ونظرت إليه الطفلة الحذرة، وهي تمسح دموعها وقالت وهي تتهره:
- لا لا تأت معي فأمي لا تحب الشحاذين.
ثم مضت والتفتت مرتين لثراه.

تغيرت الدنيا في عيني لانكا: أحس بالخيبة المرة تسري في نفسه
وتتمطى وشعر باندفاعه وجرأته يهويان إلى الحضيض درجات درجات،
وإذا به ينحني ويطأ طع هامته من جديد، وإذا به يستعيد سحنه المجهد
المعبرة، وإذا به يلقي على كتفيه جرابه الذي كان يمسكه بيده، وعلى الرغم
من ذلك أهاب بالطفلة التي كادت تتوارى عن أنظاره في منعطف من
الطريق:

- مع السلامة

وتلقت الطفلة مرة أخيرة ثم غابت.

وبدا كل ما حول لانكا كشيء أسود. وهبط المساء وتصاعدت حرارة
ثقيلة تنذر بعاصفة هائلة تتمخض في الجو، ولونت الشمس الراحلة سعف
النخيل بأشعة قرمزية، وهبت ظلال الليل تكتسح الأغصان والأشجار
الكبيرة التي تزداد كبراً وضخامة في الليل. وخيل لـ لانكا أنه اكتنه فكرة
تختلج في أعماقها، أنها تترقب أمراً خيفاً، سيحل بالأرض عما قريب

وأرسلت الشمس آخر أشعتها فلامست ذرى الأشجار ثم غشيتها غاشية
قائمة غائمة وغطست في أعماق الأرض، وهناك أصوات تعلو، ومغني
يغني وأنغام شجية تضطرب وكأنها مثل هذا الجو الذي تعيش فيه يسحقها
الغيظ سحقاً.

وتملكت لانكا كآبة غير واضحة، وخوف غير معروف، وأحس
برغبة مفاجئة تدفعه إلى العودة إلى جده فأسرع الخطا غير شاعر برغبته في
التسؤل، مشى وكان قلبه يقفز من صدره، وأتعبه أن يمشي وأن يفكر في
وقت واحد، وظلت ذكرى الطفلة تلاحقه وترهق أفكاره.

هل هي غنية؟ لو كان أهلها أغنياء كانت معذبة مرهقة بالضرب،
فالأغنياء بخلاء. هل هي فقيرة؟ لو كان أهلها فقراء لم يضربوها،
فالأطفال في بيوت الفقراء أقرب إلى التمتع بحب الآباء وحنانهم من
أبناء الأغنياء، ذلك لأنهم هم الذين يعولون عليهم في كسب خبز
المستقبل.

تلك هي الأفكار التي استعرضها فزادت شعوره بالحزن والأسى
وظن أنها ليل يزداد قتاماً وكثافة حيناً بعد حين.

وازداد الغروب بلبلة وارتباكاً والهواء حرارة وقيظاً ومربلانكا كثير
من القوزاق ترافقهم نساؤهم وبناتهم، مروا به ولم يلقوا عليه نظرة. فقد
ألفوا رؤية هؤلاء المشردين الذين يموتون جوعاً، والذين غزوهم من قلب
روسيا، أما هو فقد ألقى عليهم نظرة شزاء أنهم ينبعجون سمناً، ويسيلون
نعمةً وبطراً.

أسرع إلى الكنيسة وقد رأى قبتها تلمع من خلال الأشجار وسمع

رغاء القطعان تعود إلى حظائرها وبدت له الكنيسة صغيرة عريضة، تعلوها
قبات خمس زرق يحيط بها النخيل.

وقد سمت ذراه على الصليبان التي تلمع عليها أشعة الشمس
الغاربة فتلهبها بنار ذهبية موردة.

ها هو ذا جده يدنو من صحن الكنيسة، وقد انحنى ظهره تحت ثقل
جراجه، وغطى عينه بيديه يبحث عما حواليه ومن ورائه قوزاقي ذو لباس
فخم تغور قبعته في جبهته وفي يده هراوة.

وسأل الجدد حفيده وقد رآه يسير إليه، وكان يعتمد على درج
الكنيسة:

- كيسك فارغ، أليس كذلك؟ أما أنا فانظر...

وزحزح كيسه عن عاتقه وألقاه ثقيلًا ممتلئًا وهو يثن.

- أهل هذا البلد كرام محسنون، ولكن مالك؟

وأجاب لانكا ضعيفاً خائر القوى: - صداع أليم.

واستقرّ على الأرض إلى جانب جده. وأسند الجدد ظهره إلى كومة من
الأحجار طروباً نهما يدغدغ صدقاته بيده.

- أنت تعبان؟ سنذهب حالاً لننام، ما اسم القوزاقي الذي جاء بنا

إلى هنا؟

- اندره تشيرني.

- نعم تشيرني. سنسأل عنه. هذا رجل قادم إلينا، نعم إن سكان هذه

القرية طيبون أغنياء. كلهم يأكلون القمح.

مرحباً يا أخي.

وجاء قوزاقي فردّ على تحية الجدد: - مرحباً بك أنت.

وقف ينظر إلى المتسولين نظرة ثاقبة، وحكّ أنفه صامتاً. ونظر لانكا إليه مستغرباً، أما الأب فظل ينتظر كلام الرجل الصامت، وأخيراً مطّ لسانه قليلاً وحاول أن يلامس به أطراف أنفه، ولما نجحت هذه العملية الأولى أدخل شاربيه في فمه ثم أطلقهما، وفصم عرى الصمت الذي كباد يكون مقلقاً ثم صرخ في قوة:

- هيا معي إلى المركز!

وسأله الجدد وهو يتفرض:

- ولماذا؟

وسرت في قلب لانكا رعشة.

- أمرني الرئيس بذلك فأتبعاني:

وأدار ظهره ومشى ثم التفت فلم يجد وراءه المتسولين فصرخ:

- ماذا تنتظرون؟

ووقف المتسولان في سرعة ومشيا وراءه. ونظر الصبي إلى الشيخ فرأى أسنانه تصطك، ورأسه يهتز ويده تنبش في صدره، وعينيه تدوران خائفتين، وعرف أن له أمراً مثل أمره في مدينة تامان وتذكر الطفل مغامرة تامان فاختلج:

سرق الجدد في ذلك البلد ثياباً منشورة في مساحة دار ورآه أصحابها وهو يسرق فسخروا به وأهانوه وضربوه وطرده في الليل. وهكذا اضطّر إلى قضاء الليل على الشاطئ فوق صخرة، والبحر يزأر زئيراً مرعباً والرمل يئنّ والشيخ يسهر الليل كلّه يستغفر الله ويقول أنه لص.

- لانكا.

وارتحف لانكا كأنه ضُربَ بسوط على ظهره، ونظر إلى جده، فإذا وجه الجَد الضامر يزداد ضموراً وتقلصاً. ومشى القوزاقي أمامها على قيد خمس خطوات يدخن غليونونه ويحرك عصاه.

وتتم الجَد ثمتة لا تكاد تُسمع!

- خذ.. ألقها في السياج، وانظر أين تلقىها.

واقرب من حفيده وسلّمه صرةً مستديرةً، وابتعد لانكا وهو يرعش رعشة الخوف والبرد، وقرب من السياج وهو يلحظ القوزاقي، وألقى الصرة، وبدا عليه القلق حتى بعد إلحاقها، لقد استطاع وهو يلقي بالصرة أن يلاحظ أنها انفتحت وأن عقداً سقط منها.

وأثار هذا العقد ذكرى الفتاة ذات الدموع التي لا تحفّ، ثم ظهرت له صورتها فمحت صورة القوزاقي، ومحت صورة الجَد، ومحت كل ما يحيط به. ودوت في أذني لانكا زفرات هذه الطفلة وسمع نحيبها وخيّل إليه أنه يرى دموعاً رائقة صافية تسيل على قدميه، وأمحت صورة الوجود في عينيه وملاً قلبه برد جليدي قاتل.

ومشى وراء جده إلى المركز خائر القوى، وسمع حوالبه ضجةً لم يستطع ولم يرغب في فهمها، ورأى من خلال غيمة تغشى عينيه أن هنالك من يفرغ على منضدة كل ما في جراب الشيخ، وأن كسرات من الخبز توابت وسقطت في صمتٍ ولين، وأن هنالك رؤوساً كثيرة ذات قبعات عالية تنحني على المنضدة، تعبس وتكلح ثم تنتصب في الضباب مهددة متوعدة، وفجأة جعل الشيخ يدور في يدي شيطانين ماردين كما يدور

الخذروف وهو محتج بصوت مختق في الجملة الأولى، حادة في الجملة الثانية:

- حرام يا أرثوذكس حرام. أشهد الله أني بريء.

وتهالك لانكنا على الأرض وهو يتحب وجاء دوره فرفعوه وأجلسوه على مقعد ونقبوا في أسنانه، وفجأة انتهى كل شيء: ماتت الزفرت التي تخنق لانكنا في حلقه، وانقطع نجيب الشيخ، وخرست الأصوات المزجرة كأنها حدثت أعجوبة وصرخ صارخ منهم:

- كذبت دانييلوفا. تلك المرأة اللعينة!

وقال آخرون:

- لعلها أخفياه في مكان آخر.

وعادت الأصوات إلى اصطخاها.

وشعر لانكنا أن كل هذه الأصوات ضربات تقع على أم رأسه فيترنح ويغمى عليه وخُيِّلَ إليه فجأة أنه سقط في هوة سوداء تفغر فاهاً فلا يرى حداً لها وعندما فتح عينيه شعر أن رأسه ملقى على ركبة جده الذي يميل عليه وفي وجهه تجعدات لم ير مثلهما من قبل أسنى وعمقاً، ومن عينيه الخائفتين تنحدر دموع كبيرة تسقط على جبين الطفل وتندرج على خديه وتنحدر إلى عنقه. وقال له جده:

- أنت خير حالاً! قم بنا يا صغيري نرحل، لقد تركنا الأشرار.

ورفع لانكنا رأسه ثم جلس وخُيِّلَ إليه أن رأسه ثقيل كأنه حُمَشِيَّ بشيء وأنه سوف يتدحرج على كتفيه فأمسكه بيديه ثم جعل يترنح ويشن.

- صداك شديد يا ولدي. لقد عذبنا هؤلاء الوحوش كثيراً.
خنجر ضاع. بنت صغيرة أضاعت عقدها.. إذن فنحن المخطئون. نحن
شحاذون، إذن فنحن سارقون. آه يا رباه ماذا ارتكبنا من جريمة فتعاقبنا
عليها؟

وخرقت صرخات الجذأذني لانكأ فأشعلت في نفسه لهيباً محرقاً
جعله يتعد قليلاً عن العجز ثم يحدق فيه رأى على وجه هذا العجز في
موضع التجددات أفاعي صغيرة من الكذب تتلوى، ونظر حوالبه وهو
يرتجف.

كانا في مخرج القرية تحت ظل نخلة، والليل قد أتم لباسه والقمر
أشرق ونشر على السهل العريض أشعته الصفراء الفضيّة، يحاول أن
يجعل هذا السهل أكثر انكماشاً وانقباضاً من النهار ولكن أكثر كآبة
وتجهماً. وعلى الأفق هناك حيث تختلط الأرض بالسماء تتقدّم سحب
قائمة إلى القمر تحاول طيه وراءها، وتلقي على الفلاة ظلالها السود، ثم
لا تلبث أن تنقشع. وفي القرية أصوات تنبعث وأنوار تنتشر كأنها تغمر
نجوم السماء وقال الجذ:

- هيا يا عزيزي يجب أن نذهب.

وقال لانكأ:

- دعنا نستريح قليلاً.

لقد أحب البادية، وسره أن يطلق لنظراته العنان فتضيع في تخوم
الأفق هناك حيث تستلقي السماء على صدر الأرض.

وخيّل إليه أنه يرى مدناً عظيمة عامرة، ملائ بالاعاجيب يسكنها

ناس كرام طيّبون، إذا لقيتهم لم تحتج إلى طلب الخبز، فهم اللذين يوزعونهم توزيعاً من تلقاء أنفسهم على كل راغب فيه فإذا تمخّض السهب العريض عن قرية مثل القرى التي اجتازها من قبل بيوتها مثل بيوتها وسكانها مثل سكانها، شعر لانكا بحزن عميق يلقي كلاكله على نفسه، وبإهانة كبرى تعبث بجمال أحلامه.

ولكنه لا يلبث إذا طلع عليه اليوم الجديد، وعرض عليه السهب اللانهائي سعيته أن ينبعث حُلماً حياً، أن يرى هنالك بعيداً وبعيداً جداً مدناً جديدةً عامرةً يسكنها ناس كرام طيّبون، هي خير مما مرّ به من مدن وهم خير ممن لقيهم من ناس.

وأمعن النظر في أقصى الأفق حيث تتصاعد قبائل الغيوم كما يتصاعد دخان ألوف من المدافع في تلك المدينة المثالية التي يحلم بلقائها ذات يوم.

وقطعت سعلة الجد حلم لانكا فنظر إليه في إمعان الشيخ يتنفس في صعوبة. وقد غسلت الشموع خديّه، وأضاء القمر مرتفعات وجهه، وتساقطت الظلال الغربية على أسنانه وحاجبيه ولحيته فوهبت لوجهه الذي تختلج شفتاه وتفتّح عيناه تعبيراً من الخوف ومن الحزن. ولريستطع لانكا، وقد رآه أن يمنع نفسه من الابتعاد عنه مرة أخرى.

وقال الجد وهو يبحث في صدره عن شيء ويتسم ابتسامة بليدة:
- إذن قلنّيق قليلاً.

وأدار لانكا رأسه وحول نظراته إلى الأفق البعيد.
وصرخ الأب فجأة صرخة المنتصر.

- لانكا: يا صغيري لانكا.. انظر.. انظر.

ومزقه السعال ولكنه لم يمنعه من أن يعرض على عيني حفيده شيئاً طويلاً لامعاً.

- فضة.. أنه من فضة.. ثمنه خمسون روبلاً على الأقل.

وهزت يديه وشفتيه وغضنت وجهه هزة شرهة مزعجة. ودفع لانكا يدي جده وهو يرتجف ويقول:
- أخفه حالاً يا جدي.. خبئه.

- وماذا حل بك أيها الأبله؟ هل أنت خائف يا ولدي العزيز؟ نظرت إلى النافذة فأذا به يتدلى فأخذته وواربته في صدري ثم علّقه فوق عليقة.. وغادرنا القرية فأوهمت الناس أن قبعتي سقطت وانحيت فتناولتها.

يا لهم من أغبياء.. والعقد.. العقد أيضاً أخذته وأليك هو.
وأخرج العقد من بين أسنانه وهزه ليريه حفيده، ورأى الطفل سداً يقوم أمام عينيه ويمثل هذا المشهد.

الجد والحفيد يمشيان وقد حثا خطاهما في شوارع القرية.. يحاولان ألا يراهما أحد فيها. الخوف يضمهما، ولانكا يشعر أن لكل من على الأرض حقاً في ضربه وضرب جده، وشمهما معاً والبصاق في وجههما، ولقت البيوت والأشجار والجدران المرتجفة أمام الريح غيمة خفية. ومزقت الهواء أصوات مختلفة تلك جلجلة لا يمكن أن تنتهي.. إنه لا يرى للقرية مخرجاً، ولا للحقول سبيلاً إنه مطوق بأطواق من البيوت المتنوعة وتقرب أحياناً منها لتسحقها سحقاً وتقهقر أحياناً عنها وهي تكسر وتتوعد، وكأن

نوافذها ثقوب سود تفغر فاما لابتلاعها، ودوى من إحدى النوافذ صوت
يصرخ:

الصوص.. اللصوص.. أيها اللص الصغير.

ونظر لانكا خائفاً إلى هذه النافذة.. ورأى تلك الفتاة الصغيرة التي
كانت تبكي في النهار. والتي سره أن يدافع عنها ويحميها.. رآها فعرفته
وفهمت مقصده فمدت له لسانها توائمه، ورشقتها بنظرة نافذة من عينيها
الزرقاوين وخزت جلده وخز الإبر.

وتجد هذا المنظر في عيني الطفل ثم اختفى، فنظر إلى جده نظرة
منكرة، كأن الشيخ ما يزال يتحدث ويخطب ويثرثر، لا يمنع من ثرثرته غير
السعال وكان يفرك يديه ويتسم ويمسح القطرات الكبار من العرق
الجاري في أخايد وجهه، وغطت وجه القمر غيمة كثيفة ولرير لانكا وجه
جده، ولكن منظر الطفلة الباكية عاد إليه وقارن بين الصورتين: العجوز
الضعيف الشره ذو الأسهال، والطفلة التي سرقها، وهي تبكي بكاءً مرّاً،
الطفلة الصحيحة الصغيرة اللطيفة.

وبدأ له العجوز في هذه المقايسة مخلوقاً خالياً من كل نفع خبيثاً أسود
يكاد يكون مثل خبث (كوشتشي) الذي حدثوه عنه في الأساطير. أهذا
ممكن؟ أمّن الممكن أن يسيء هذا الجد إليه؟

والجد ما زال يتحدث وكأنه لا يعرف للتعب معنى:

- مائة روبل.. لو جمعتها لمتّ في هدوء...

وثار لانكا ثورةً جامحةً وصرخ:

- اسكت... لو مت... لو مت... طالما رددت هذا القول ومع ذلك
فأنت لا تموت بل إنك تعيش وتسرق.

وانتصب واقفاً: - إنك لص عجوز.

وهز لانكا قبضته الصغيرة تحت أنف الجد ناقماً ثم سقط على الأرض
وهو يقول:

- سرقت طفلة.. فهل سرقتها حلال؟ عجوز ويسرق!! لن يغفر
لك ربك أبداً.

وفجأة اهتزت الأرض تحت بارقة تخطف البصر زرقاء دفعت تخموم
الأفق ومزقت الظلمات ثم توارت.

ودوى الرعد وهدر وهز السماء فركضت غيومها هاربة هرباً جنونياً
وأغرقت القمر ثم عادت الظلمة، ولمع البرق من بعيد وانقضت ثانية ثم
دوى الرعد وساد الأرض بعده صمت يظهر أنه يسكون أبدياً.

ورسم لانكا إشارة الصليب. وبقي الجد ساكناً أخرس كأنه قطعة من
هذه الشجرة التي يسند ظهره إليها. وخاف لانكا من قصف الرعد فقال
لجده هامساً:

- لنعد إلى القرية يا جدي...

واهتزت السماء ثم اشتعلت بلون أزرق وقصف الرعد قصفاً هائلةً
كأن ألوفاً من القضبان الحديدية سقطت على الأرض فاصطدمت
وتكسرت.

وصرخ لانكا: جداه.

وغطت جلجلة الرعد صوته فرن كأنه جرس مصدوع.

وقال الجد وهو لا يتحرك:

- ماذا بك يا ولدي؟ هل أنت خائف؟

كان صوته أجش فيه كآبة وسخرية ويأس، وأحس لانكا أن شخصاً غريباً عنه يتحدث إليه.

وهطل المطر في قطرات كبار وكان في صوته إنذاراً غريباً مهموساً، وازداد هناك الصوت واطرد فكأنك تحك الأرض اليابسة بفرشاة ماردة بعيدة، أما هنا فكانت قطرات المطر تسقط على الأرض في صوت ميت ليس له صدئ.

وصرخ الجد في صوت يخنقه الغضب:

- لن أعود إلى القرية.. وليغرقني المطر غرقاً ولتسحقني الصاعقة سحقاً، لست إلا كلباً عجوزاً سارقاً لا لن أذهب، عد إليها أنت وحدك.. القرية هناك فاذهب إليها، إنني أمنعك من البقاء هنا اذهب.. اذهب.. اذهب..

وتتم لانكا وهو يقترب من جده:

- جداه عفوك عني.

- لا.. لن أذهب. ولا أريد أن أعفو عنك.. سبع سنوات قضيتها أركانك وأعني بك. هل لك عندي شيء.. أنا احتضر وأنت تقول لص، سارق، وفي سبيل من أسرق؟ في سبيلك كل ما فعلت وأفعل. لك ومن أجلك.

أرأيت؟ خذ خذ خذ وفرت واشتغلت واقتصدت وسرقت.. كل ذلك من أجلك والله على ما أقول شهيد، إنه يعرف أنني سرقت وأنه

سيعاقبني جزاء لسرقاتي، هو لن يعفو عن كلب عجوز مثلي يرتكب جريمة السرقة. وها هو ذا يسرع إليّ بعذابه.. ويعاقبني. يا رياه: لقد بطشت بي بطش عزيز مقتدر. وقتلني بيد هذا الطفل، وكنت بذلك جديراً ولذلك مستحقاً. يا مولاي ما أعدلك تباركت وتعاليت. اللهم ارحمني يوم الحساب.. آه.. آه..

وتحول صوت الجد إلى زجاجة حادة أخافت لانكا وأرعبته.

ودوى الرعد يهز الأرض والسماء واتصلت أصواته وطالت وكان في قصفه منه خبراً هاماً ينقله إلى الأرض. وكان الصوت يأخذ يناصية الصوت فلا هواده ولا ريث، وتخللت البروق الغيوم، وارتجف السهل حيناً، وغطاه البرق الأزرق حيناً وغمرته الظلمة حيناً، واحترق الأفق بنار موقدة لا تنطفئ.. وكان كل هذه العناصر الطبيعية الغاضبة تدفع حدود المكان دفعاً إلى وراء وتعود القهقري.

وانهمر المطر انهاراً وأصبح لونه في ضوء البرق فولاذياً، وألقى من دون أنوار القرية المضيافة حجاً كثيفاً وسداً منيعاً.

وخاف لانكا وقلق وندم على ما فعل بجده، وعلى الرغم من أن قطرات المطر كانت تسقط من رأسه على عينه فقد ظل يفتحهما خوفاً ورعباً.. وظل يصغي إلى جده في هذه الفوضى الغامرة من الأنغام الهائلة.

وفهم الطفل أن جده ساكن في مكانه لا يتحرك، ولكنه خيّل أنه يبتعد عنه ويتوارى في مكان ما تاركاً الشيخ وحده واقتراب من دون وعي من جده ولمس مرفقه بيده.. وعند ذلك ارتجف وانتظر حدوث أمر مخيف.

مَزَقَ البرق الغيوم، وأثار هذين المخلوقين المتلازمين الضئيلين، وقد تقلّصت أعضاؤهما تحت سيول الماء المتدفقة من ثنايا الأشجار.

ورفع الجد يده إلى السماء ودعا دعاء غير مفهوم، وكان التعب قد هذه وامتنعه ونظر لانكا إليه فصرخ صرخة رهيبّة، هذا الوجه وجه ميت أناره البرق، هاتان لعينان عينا مجنون.

وصرخ لانكا: - هيا بنا يا جداه.. ثم غمر رأسه بين ركبتي جده.

وانحنى الجد عليه وضّمّه إلى صدره بيديه العظيمنتين وفجأة زأر زفيراً مؤلماً كأنه ذئب وقع في فخ. وخُيِّلَ إلى لانكا أنه جنٌّ خَوْفاً وفرقاً، فانتزع نفسه من يدي جده انتزاعاً واندفع أمامه كأنه سهم. وأعمته البروق فسقط ثم نهض وغاص في أعماق الظلمات التي كانت البروق تبددها حيناً بعد حين، فتعود أشدّ ضيقاً وأكثر ضغطاً على هذا الطفل المجنون.

واستمر الرعد يدوي، واستمر البرق يلمع واستمر المطر ينهمر رتياً كثيراً.. وكان السهب لم يسمع أبداً غير جلجلة المطر وقصف الصواعق وجلجلة الرعد..

.. وأسرع أطفال القرية إلى قريتهم في اليوم الثاني، يندرونها انذاراً.. رأوا الشحاذ العجوز متمدداً في ظل نخلة لا بد أنه ذُبِیح ذبحاً، فإن إلى جانبه خنجرأ.

وحقّق القوزاق في الأمر فرأوا أن تفصيلاته ليست صحيحة تماماً.

وكان العجوز لا يزال يتنفس وقد حاول عندما رآهم أن يقف على قدميه فخائته قواه، وانعقد لسانه، فبحث بعينه عن شخص أو عن شيء ما فيمن حوله.. فلم يكتشف أحداً ولم يجبه أحداً.

ومات عند المساء فحفروا له قبراً في مكانه تحت النخلة، فقد قرروا أنه، وهو السارق الذي مات قبل أن تغفر له الكنيسة ولا يجوز أن يستريح في مقبرة المؤمنين الصالحين.

ووجدوا لانكاً بعد يومين أو بعد ثلاثة أيام في ضواحي القرية، وقد دلت عليه طائفة من الغربان كانت تحوم حول مجرى السيل وتنشق.. وتقصوا السبب فوجدوا الطفل ممدداً، منكباً على وجهه وقد غطاه الطين الذي جاء به السيل إلى الحفرة.

وقرروا بادئ ذي بدء أن يدفنوه في المقبرة باعتبار أنه طفل، ولكنهم ما لبثوا أن فكروا وقلبوا وجوه الرأي فدفنوه إلى جانب جده تحت ظل النخلة.

وأشاروا إلى مرقد الجد والحفيد بكومة من تراب فوقها صليب من

حجر..

فهرس

5	مقدمة المترجم
11	تشيلكاش
65	رفيقي
117	لانكا

هذا الكتاب...

قال إياس بن القائف:

«تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا»
في هذه المجتمعات التي يسودها نظام التنازع الحيواني في سبيل البقاء . مهم
كان نوع البقاء، لا نظام التضامن الإنساني في سبيل حسن البقاء . وفي هذه
المجتمعات التي يعيش فيها الإنسان «شيثاً» لا قيمة له، لا «إنساناً» هو معيار القيم .
في هذه المجتمعات التي ما تزال تسير يدفعها القدر الأعْمى، ولا يهديها العز
البصير، في هذه المجتمعات يعيش الملايين من البؤساء، تقذف بهم الأرض في كل
جانب فهم لا يطمئنون، وتلقى عليهم الحياة أثقالتها فتطحنهم طحناً، في هذه
المجتمعات يتحوّل هؤلاء الملايين إلى لصوص يسرقون ويظنّون أنّهم بهذه السرقة
قادرين على حلّ مشكلة فقرهم وهي جزء من مشكلات المجتمع، وهم لا يعلمون
أنّهم يزيدونها بها تعقّداً، وإلى متشردين يسعون في طلب الرزق في كلّ مكان فلا
يجدونه في مكان، يطلبونه حفاة عراة ويظلّ يفرّ منهم، فتهترئ حياتهم في
الشوارع والأزقة فلذة بعد فلذة حتى يسلمهم طول الطواف في صحارى العمر إلى
طول الرقود في زوايا القبر، وإلى شحاذين يملؤون آذان الناس في طلب الرحمة
ولو كان في الناس رحمة لجادوا عليهم بها دون سؤال، ويتسكّمون على الأبواب
يطلبون من مال الله والمال في خزائن الأغنياء، فيضربهم الرجال وتنتهرهم
المرأة ويشتمهم الطفل، ويستمرّون في التسول يجوعون كسرّ الخبز اليابس .
وفضلات الطعام الوحّم، ويجعلونها غذاء لأطفالهم الذين يسبّرون بهم إلى
جانبيهم أكواماً من الأقدار وتلالاً من الأسمال، أو يحملونهم على ظهورهم
مرضى يفتك بهم السلّ فيقيثون رئاتهم وهم يسعلون.



للدراسات
والنشر
والتوزيع



نينوى

